المِلاكُ

لمعرفة عجائب وأسرار

الآياتِ المتشابهةِ

عدنان عبد القادر

دار حامل المسك
للنشر والتوزيع

الملاك
لمعرفة عجائب وأسرار
الآيات المتشابهة

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م



الكويت - الشامية قطعة ٨ - شارع ٨٨ منزل ٥
هاتف: ٦٨٩٠٠٧٨ - فاكس: ٥٢٤١٥٦٠
ص.ب ١٢٣٢٦ الشامية - الرمز البريدي ٧١٦٥٣
Website:www.hamel-almisk.Com
E-Mail:info@hamel-almisk.Com

الملاك لمعرفة عجائب وأسرار الآيات المتشابهة

عدنان عبد القادر

دار حامل المسك
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد

« لقد سجَّل التاريخ العجز على -العرب- أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن. وهو أزهى عصور البيان العربي ، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي. وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها؟! حتى أدركت هذه اللغة أشدَّها ، وتم لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيبُ كلماتها وأساليبها؟ . . . ما هذه الجموع المحشودة في الصحراء ، وما هذه المنابر المرفوعة هنا وهناك؟ إنها أسواق العرب تعرض فيها أنفَسُ بضائعهم وأجودُ صناعاتهم ، وما هي إلا بضاعةُ الكلام وصناعةُ الشعر والخطابة ، يتباروْن في عرضها ونقدها ، واختيارِ أحسنها والمفاخرَة بها ، ويتنافسُون فيها أشد التنافس ، يستوي في ذلك رجالهم ونساؤهم»[١] .

« لقد بلغ العرب في عقد القرآن مبلغاً من الفصاحة لم يعرف في تاريخهم من قبل»[٢] . « إن أكبر هَمٍّ للعرب في أسواق المواسم (كعكاظ ومجنة وذي المجاز) في تخير اللغة وتهذيبها عملاً . . . فكانت (هذه الأسواق) مجالس للتحدث بأيامهم وحروبهم ، ونوادي يتبارى فيها خطباؤهم وشعراؤهم . وقد كان في عكاظ إجماع

١- دراز (٨٣-٨٤) .

٢- إعجاز القرآن للرافعي (١٥٧) .

على أن كلَّ كلمة تقال أو خُطبة تلقى أو قصيدة تنشد لا تتصل بالفصاحة بسبب لا ينقلها أحد، ولا يرويها راوٍ، ولا يحفظها حافظٌ»[١].

سوق عكاظ

« سوق عكاظ في الجاهلية كانت أشبه شيء بأكاديمية كبرى في بلاد الغرب. وكان الفائز في عكاظ يباهي بنفسه مباهاة البطل المُجليّ من أبطال الإغريق في ألعابهم الأولمبية. بل ليس بين نائلي جائزة نوبل اليوم من يزيدُ فخره على فخر أولئك الفائزين في عكاظ الجاهلية»[٢]. لذا « قصد إليها الشعراء والخطباء والبلغاء في كل مكان في بلاد العرب، وكان معظمُ همِّهم انتقاءَ الألفاظ الفصيحةِ المعروفةِ عند أكثرِ العرب، طمعاً في أن تنتشر أقوالُهم»[٣].

« وإن البلغاءَ من الشعراءِ والخطباءِ العرب لم يكونوا يقولون كلَّ ما يَرِدُ على خواطرهم. وإنما كانوا يُنَغِّمون ويجوِّدون حتى يَظْفَروا بالكلام الجيد البليغ. وإن من الشعراء من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كَرِيتاً (تام العدد)، وزمناً طويلاً يردد فيها نظره، ويُحيل فيها عقله، ويقلِّب فيها رأيه اتهاماً لعقله، وتتبعاً على نفسه.. وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلَّدات والمنقَّحات والمُحْكَمَات ليصير قائلُها فحلاً حنذيداً (مجيداً) وشاعراً مُفلقاً (داهية) »[٤].

١- معجم متن اللغة: أحمد رضا (١/ ٤٢).
٢- د. فيليب حتى وإدوارد جرجي وجبرائيل جبور: تاريخ العرب (١٣٧).
٣- سوق عكاظ (١٧٨).
٤- الجاحظ في البيان والتبيين (٢/ ٧)، سوق عكاظ لعرفان (١٧٨).

قضاة البلاغة

« كان للعرب في سوق عكاظ قضاةٌ للشعر، تُضرب عليهم قبابٌ حمرٌ من أدم تكريماً لهم. فيتقدم منهم شاعر كل قبيلة فيَعرضُ عليهم جديد ما قاله من الشعر »[1]، «ويناقشهم الرأي في فصاحة ألفاظها وقوة تعبيرها وبيانها»[2]. وينتظر حكم القضاء فيه « فما استجاده القضاة فهو الجيد، وما حكموا بضعفه فهو الركيك»[3]، «فينتقدها القاضي نقد العالم الخبير بأسرار الفصاحة والبيان ثم يصدر حكمه»[4]. فما يكاد القاضي يُصدر حكمه حتى يتناقل الرواة والناس القصيدة الفائزة، فتنتشر في أحياء العرب حواضرِها وبواديِها[5].

« وفيها حُكِمَ على قصيدة امرئ القيس وجعلت من المعلقات السبع، وكذا عمرو بن كلثوم سعى إلى سوق عكاظ فقام فيها خطيباً وأنشدها فأعجب الناس بها»[6]. وطارت بين العرب. وفيها انتقد النابغة قصيدة حسان بن ثابت ورد عليه حسان حينئذ.

دولة الكلام

« فقامت فيهم دولة الكلام ولكنها بقيت بلا ملك، حتى جاءهم القرآن »[7]. ففي

١- سوق عكاظ (١٨٢).
٢- سوق عكاظ (١٨٤).
٣- سوق عكاظ (١٨٢).
٤- سوق عكاظ (١٨٤).
٥- سوق عكاظ (١٨٢-١٨٤).
٦- سوق عكاظ لعرفان (١٧٩-١٨٠).
٧- إعجاز القرآن للرافعي (١٥٧).

غمرة تنافسهم أشد المنافسة في النقد وصناعة البلاغة والفصاحة ومفاخرتهم بها في أزهى عصور البيان العربي وأرقى أدوار التهذيب اللغوي إذا بالقرآن ينزل على النبي محمد ﷺ.

فما هو إلا أن جاء القرآن . . . . حيث جاءهم النبي ﷺ فتلا عليهم القرآن في سوق عكاظ[١] .

وكذا أتاهم ﷺ به في سوق ذي المجاز[٢] « وإذا الأسواق قد انفضت إلا منه . وإذا الأندية قد صَفرت إلا عنه . فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه ، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة ، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة ، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى . ذلك على أن القرآن لم يسد عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه ، بل دعاهم إليه أفراداً أو جماعات ، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى ، متهكماً بهم متنزلاً معهم إلى الأخف فالأخف : فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله ، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله ، ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله ، ثم بسورة واحدة من مثله ، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاؤوا ومن استطاعوا ، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير مواربة فقال : (**لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**)[٣] .

١- قال ابن عباس انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ . فذكر قصة إسلام الجن . رواه البخاري (٤٩٢١) .

٢- « قال ربيعة بن عباد الديلي : رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» . رواه أحمد (٣/ ٤٩١-٤٩٢) .

٣- سورة الإسراء(٨٨) .

وقال (فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ولَن تفعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)[١] . فانظر أيَّ إلهاب، وأيَّ استفزاز! لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله (ولَن تَفْعَلُوا) ثم هددهم بالنار، ثم سواهم بالأحجار. فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء، وأباةُ الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفَخَارهم. ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سلماً يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما اسطاعوا له نقباً. . حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابَهم إلا أن ركبوا متن الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف. وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعاً عن نفسه بالقلم واللسان»[٢] .

«لم يكن إلا أنه تحداهم أن يأتوا بكلام مثلِ الذي جاءهم به؟ ألم يكن ذلك أقرب إليهم وأبقى عليهم لو كان أمره في يدهم؟ ولكنهم طرقوا الأبواب كلها إلا هذا الباب (وهو تحدي القرآن أن يأتوا بمثله)، وكان القتل والأسر والفقر والذل كل أولئك أهون عليهم من ركوب هذا الطريق الوعر الذي دلهم عليه »[٣] . وهو أن يأتوا بمثله.

«إنهم أحسوا في القرآن قوة غلابة، وتياراً جارفاً يريد أن يبسط سلطانه حيث يصل صدى صوته»[٤] . لقد أصاب الرعب « بلغاء العرب بعد أن استيقنوا بالإعجاز ،

١- سورة البقرة (٢٤).
٢- دراز (٨٣-٨٥) .
٣- دراز (٨٨).
٤- دراز (٨٨).

فأجرَوْا القرآن كله على التسليم حذار أن ينفضحوا إذا انتقدوا فيه شيئاً»[١] . فأصبح بلغاء العرب وفصحاؤهم أغفالاً وأحداثاً أمام القرآن ، ناشئين وارثين بين يديه .

الإيجاز في اللفظ مع الوفاء بالمعنى

سمع الأصمعي جارية تنشد شعراً فصيحاً فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك!
فقالت : أبعد قول الله تعالى (**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**)[٢] ، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين؟!

من عجائب القرآن «أنه تلتقي عنده نهاياتُ الفضيلة كلها ، على تباعد ما بين أطرافها»[٣] .
« إن القصدَ (الإيجاز) في اللفظ والوفاءَ بالمعنى نهايتان ، كل من حاول أن يجمع بينهما وقف منهما موقف الزوج بين ضرتين لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل ما إلى إحداهما»[٤] . « رب حرف واحد ينقص من الكلام بقصد الإيجاز يَذهب بمائه ورونقه ، ويكشف شمس فصاحته . ورب اختصار يطوي الكلام طياً يُزهق روحه ويُعمِّي طريقهُ ويَرُدُّ إيجازه عِياً وألغازاً»[٥] .

« والبلغاء مهما أوجفوا من ركابهم ، ومهما أجلبوا بخيلهم ورجلهم لا يبلغ الواحد منهم بعمله غاية أمله»[٦] . « ولعله لو رجع إليه سبعين مرة لكان له في كل مرة

١- إعجاز القرآن للرافعي (٢٢٥) .
٢- القصص (٧) .
٣- دراز (١٠٨) .
٤- دراز (١٠٩) .
٥- دراز (١٠٩) .
٦- دراز(١١٠) .

نظرة»[١] . « فتراه يتعقب كلام نفسه في الفينة بعد الفينة يجد زائداً يمحوه، وناقصاً يثبته، ويجد فيه ما يهذَّب ويبدَّل، وما يقدَّم ويؤخَّر»[٢] . « هذا حظ كلام البليغ عند قائله، فما ظنك بناقديه ومنافسيه»[٣] .

« سل العلماء بنقد الشعر والكلام: هل رأيتم قصيدة أو رسالة كلها أو جلها معنى ناصع، ولفظ جامع، ونظم رائع؟ لقد أجمعت كلمتهم على أن أبرع الشعراء لم يبلغوا مرتبة الإجادة إلا في أبيات محدودة، من قصائد معدودة. وكان لهم من وراء ذلك المتوسط والرديءُ والغث والمستكره وكذلك قالوا في الكُتَّاب والخطباء، والأمر فيهم أبين. فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغايتان (قصدٌ وإيجاز في اللفظ ووفاء بالمعنى) على تمامها بغير فترة انقطاع فانظر حيث شئت من القرآن الكريم تجد بياناً قد قدِّر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تُحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير، يؤدي لك من كل معنى صورةً نقيةً وافيةً. نقية لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها. وافية لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية. كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه.

فالقرآن في كل جملة منه جهاز من أجهزة المعنى. وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه وفي كل حرف منه جزء بقدره. وفي وضع كلماته من جُمَله ووضع جُمَله من آياته سرُّ الحياة الذي ينتظم المعنى بأداته. وبالجملة كما قال الباقلاني: محاسن متوالية وبدائع تترا»[٤] .

١- دراز(١١٠).
٢- دراز(١١٠).
٣- دراز(١١١).
٤- دراز(١١٢).

الإحكام في اختيار ألفاظه

سمع أعرابي رجلاً يقرأ (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم). فقال : ما هذا بكلام الله! فأجابه القارىء : ويحك، اتق الله، هذا كلام الله. فقال الأعرابي : اقرأ ثانية. فقرأ القارىء، ولكنه قال : **(والله عزيز حكيم)**. فقال : صدقت. هذا كلام الله، عَزَّ فحكم فقطع.

فكتاب الله « لو نُزِعت منه لفظة ثم أدير لسانُ العرب لفظةً أحسن منها لم توجد»[١] بل هو كما وصفه الله تعالى(**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**)[٢][٣].

« رب كلمة تراها في موضع ما في الشعر أو النثر كالخَرَزَة الضائعة. ثم تراها بعينها في كلام الله كالدرة اللامعة»[٤]. « لو أن آية منه جاءتك في جمهرة من أقوال البلغاء لدلت على مكانها، واستمازت من بينها كما يستميز اللحنُ الحساس بين ضروب الألحان، أو الفاكهةُ الجديدةُ بين ألوان الطعام»[٥].

« فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسَّها رحِماً بالمعنى المراد، وأجمعَها للشوارد، وأقبَلها للامتزاج، ويضع كلَّ مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به.. بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظُ في معناه إلا وطنَه

١- ابن عطية، راجع الإتقان (٢/ ١٥١-١٥٢).
٢- هود (١).
٣- دراز (١١١-١١٢).
٤- النبأ العظيم : دراز (٩١).
٥- دراز (٩٤).

الأمين وقراره المكين، لا يوماً أو بعض يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلاً، ولا الساكن يبغي عن منزله حولاً.. ومن حيث الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان »[١].

من عجائبه خطاب العامة وخطاب الخاصة

لقد استمتع أسياد قريش وشيوخهم وشبابهم ومراهقوهم بسورة النجم لمّا قرأها النبي ﷺ على الملأ. إذ قام النبي ﷺ يصلي عند الكعبة وخلفه مجموعة قليلة من أصحابه المؤمنين الضعفاء، فابتدأ بسورة النجم (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ)[٢] وجهر بها، وسادة قريش في نواديهم ومجالسهم حول الكعبة.

فأخذوا يستمعون للنبي ﷺ وهو يقرأ. وهو ﷺ يذكر آلهتهم ذكراً قبيحاً (أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ)[٣]. إلى أن قرأ النبي ﷺ متوعدا إياهم (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ ﴿٥٦﴾)[٤].

وما زالوا يستمعون، بل زادهم شوقاً وخوفاً ورهبة، واستمر النبي ﷺ يقرأ (أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ

١- دراز (٩٢).
٢- النجم (١).
٣- النجم (١٩-٢٣).
٤- النجم (٥٠-٥٦).

وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾)[١]. فخر النبي ﷺ ساجداً، فسجد الصحابة خلفه، فقامت قريش كلها بساداتها وعظمائها فسجدوا لله تعالى إجلالاً للكلام وتعظيماً له، فلم يملكوا من أنفسهم شيئاً، إلا رجلاً واحداً أنفَ من السجود له، ولكنه لم يتمالك، فلسان حاله يقول: إذا أنف الجسد من السجود له، فلأذلن الجبهة لهذا الكلام العظيم، فأخذ حفنة من التراب وجعلها على جبهته تعظيماً وإجلالاً له.

خطاب العامة وخطاب الخاصة هاتان غايتان متباعدتان عند الناس. فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب. ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم. فلا غنىً لك- إن أردت أن تعطيَ كلتا الطائفتين حظّها كاملاً من بيانك- أن تخاطبَ كلَّ واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال. فأما أنَّ جملة واحدة تُلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السُوقة والملوك فيراها كلٌّ منهم مُقَدَّرةً على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم. فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربَه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان فهو متعة العامة والخاصة على السواء، مُيَسَّر لكل من أراد (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)[٢][٣].

١- النجم (٥٧-٦٢).
٢- القمر (١٧).
٣- دراز (١١٣).

جمع بين إقناع العقل وإمتاع العاطفة

روى ابن إسحاق أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ذات ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه - وكل لا يعلم بمكان صاحبه - فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا، وكذا في الليلة الثالثة، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

«إن الذى ينهمك في التفكير تتناقص قوة وجدانه وعاطفته، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعُف تفكيره. وهكذا لا تقصد النفسُ الإنسانية إلى إقناع العقل وإمتاع العاطفة معاً إلا كانت مقبلة مدبرة معاً.

فلا تجد أسلوباً واحداً يتجه اتجاهاً واحداً ويجمع في يديك هذين الطرفين معاً، ذلك ما لا تظفر به في كلام بشر، فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يُرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين. ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يُرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحين؟ ذلك الله رب العالمين **(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ)**»[١][٢].

١- الزمر (٢٣).

٢- دراز (١١٥).

« لقد ملك القرآن سر هذه الفصاحة، وجاءهم منها بما لا قبل لهم برده، ولا حيلة لهم معه»[١] . « فكانوا يفرون منه في كل وجه ثم لا ينتهون إلا إليه »[٢] .

جمع بين البيان والإجمال

« جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله ﷺ، فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له. فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال له: يا عم! إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قِبَله. قال الوليد: لقد علمت قريشٌ أني من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره. قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر لا برَجَزِه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته»[٣] .

فألح أبو جهل على الوليد وقال له: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. فقال الوليد: دعني أفكر. فلما فكر قال: هذا سحر يأثره عن غيره. وفي ذلك نزل قوله تعالى ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾[٤] . فانظر للجهد العنيف الذي بذله الرجل في إصدار حكمه . . . حيث يقول إنه فكر وقدر، ثم

١- الإعجاز للرافعي (١٥٩).
٢- الرافعي (١٦٠).
٣- الحديث رواه الحاكم عن ابن عباس. وقال صحيح على شرط البخاري.
٤- المدثر (١١-٢٥) .

نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر. ومعنى هذا كلِّه أنه كان يقاوم فطرته، ويستكره نفسه على مخالفة وجدانه، وأنه كان في حيرة وضيق بما يقول. . . . وأخيراً استطاع أن يقول ما قال نزولاً على إرادة قومه. وانظر الفرق بين هذا الحكم المصطنع وبين حكم البديهة العربية في قوله أول مرة: إنه يعلو وما يعلى وأنه يحطم ما تحته»[١].

وهذه عجيبة أخرى تجدها في القرآن ولا تجدها فيما سواه. ذلك أن الناس في تعبيرهم إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم يتسع لمعنى آخر. وإذا أبهموها أو عمموها ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس أو إلى اللغو الذي لا يفيد. ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد.

« تقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف، والملاسة والإحكام والخلوِّ من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كدِّ خاطر ولا استعادة حديث. كأنك لا تسمعُ كلاماً ولغات بل ترى صوراً وحقائق ماثلة. وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خُبراً ووقفت على معناه محدوداً، هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتَك منه بإزاء معنى جديد غيرِ الذي سبق إلى فهمك أول مرة، وكذلك. . . حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهاً عدة كلها صحيح أو محتمل للصحة، كأنما هي فصٌّ من الماس يعطيك كلُّ ضلع منه شعاعاً فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلِّها فلا تدري ماذا تأخذ عينُك وماذا تدَع. ولعلك لو وكَلْتَ النظرَ فيها إلى غيرك رأى منها أكثر مما رأيت. وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان يأخذ كلٌّ منه ما يُسّر له، بل ترى محيطاً متراميَ الأطراف لا تحدّه عقولُ الأفرادِ ولا الأجيال»[٢]. من أجل ذلك قال فيه الوليد ما قال من العظمة.

١- دراز (٩٢-٩٣).

٢- دراز (١١٨).

من عجائب القرآن

روى الأصمعي قول أحدهم: « كفاك من الشعراء أربعة ». فذكر منهم الأعشى وقال فيه: « والأعشى إذا طرب صَنَّاجَةُ العرب». الصاج والصناج آلة العزف، أي شعره يطرب. وهو من الطبقة الأولى، وكان أهل الكوفة يقدمون الأعشى. وكان أبو عمرو ابن العلاء القاري يقول عن الأعشى: « مثله مثل البازي يضرب كبير الطير وصغيره ».

وقال عبدالملك بن مروان لمؤدب أولاده: أدبهم برواية شعر الأعشى.
قال المفضل الضبي: من زعم أن أحداً أشعر من الأعشى فليس يعرف الشعر.
قال يحيى بن الجون العبدي: أعشى قيس أستاذ الشعراء في الجاهلية.
وسئل حمّاد: من أشعر الناس؟ فقال: ذاك الأعشى صناجها[١].

لما سمع صناجة العرب الأعشى بالنبي ﷺ وبالقرآن خر قلبه ساجداً لبلاغة القرآن وعظمته فرحل إلى النبي ﷺ في آخر عمره فمر بمكة. سأله كفار قريش عما يريد من مجيئه مكة.
قال: جئت إلى محمد ﷺ.
قالوا له: إنه يحرم الزنا والخمر والقمار.
فقال: أما الزنا فقد تركني ولم أتركه. وأما الخمر فقد قضيت منها وطراً. وأما القمار فلعلي أصيب منه عوضاً.
وصنع قصيدة يمدح فيها الرسول ﷺ[٢].

١- قول على قول (١ / ١٩٢).
٢- قول على قول (١ / ٦١).

يقال إن النابغة نظر إلى لبيد - وهو صبي - بين أعمامه على باب الملك النعمان بن المنذر فقال له : إن عينيك لعينا شاعر ، أَفَتَقْرِض الشعر؟

قال : نعم .

قال : فأنشدني .

فأنشده .

فقال له النابغة : اذهب فأنت أشعر العرب(١) .

وقال أبو زيد القرشي : لبيد أفضلهم في الجاهلية والإسلام .

لما سمع لبيد القرآن بهره بيانه وفصاحته ، فتكلف في الاعراض عنه ولكنه لم يتمالك قلبه أن خضع له فأسلم ، قال له عمر رضي الله عنه : أنشدني من شعرك .

فقرأ لبيد سورة البقرة وقال : ما كنت لأقول شعراً بعد أن علمني الله سورة البقرة .(٢)

وقال المغيرة بن شعبة للبيد : أنشدني الشعر .

فقال لبيد : أبدلني الله بذلك سورة البقرة وآل عمران .

لقد كانت الخنساء أشعر النساء ، وقال لها النابغة : أنت أشعر من كل امرأة .

وسُئِل جرير : من أشعر الناس؟

قال : أنا لولا هذه الخنساء(٣) .

فلما سمعت القرآن أذعنت وخضعت لعظمته فأسلمت .

١- قول على قول (١ / ١٩٢) .

٢- قول على قول (١ / ١٨٧) .

٣- قول على قول (١ / ١٩٣) .

لذا لما أسلم عكرمة بن أبي جهل كان يجعل القرآن على وجهه ويقول : « هذا كلام ربي ».

أي كيف كنت غافلاً عنه؟!

إن المرء « كلما ازداد بصيرةً بأسرار اللغة وإحساناً في تصريف القول وامتلاكاً لناصية البيان ازداد بقدر ذلك هضماً لنفسه وإنكاراً لقوته وخضوعاً بكليته أمام أسلوب القرآن. وهذا قد يبدو لك عجيباً، أن يزداد شعور المرء بعجزه عن الشيء بقدر ما تتكامل فيها قوتُه ويتسع بها علمُه. ولكن لا عجب، فتلك سنة الله في آياته لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعاناً لعظمتها وثقة بالعجز عنها. ولا كذلك صناعات الخلق، فإن فضل العلم بصناعات الخلق يمكنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها»[1]. لذا خر كبار الشعراء خضوعاً وسجوداً لعظمة القرآن كما خر السحرة لما رأوا من الخوارق على يد موسى عليه السلام.

ذوق العرب البلاغي

حسان بن ثابت رضي الله عنه والنابغة

ولما عرض حسان بن ثابت قصيدته على البلغاء في سوق عكاظ مادحاً قومه وشجاعتهم وعراقة أصولهم فأنشدها :

لنا الجفنات الغُرُّ يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دماً

ولدنا بني العنقاء وابْنَي مُحَرِّق ... فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقالت الخنساء: ضعَّفت افتخارك وأبرزتَه في ثمانية مواضع.

١- دراز (٨١).

قال : وكيف؟

قالت : قلت (لنا الجفنات) والجفنات ما دون العشر فقللت العدد، ولو قلت (الجفان) لكان أكثر.

وقلت (الغر) والغرة البياض في الجبهة، ولو قلت (البيض) لكان أكثر اتساعاً.

وقلت (يلمعن) واللمع شيء يأتي بعد الشيء، ولو قلت (يشرقن) لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان.

وقلت (بالضحى) ولو قلت (بالعشية) لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً. وقلت (أسيافنا) والأسياف دون العشر، ولو قلت (سيوفنا) كان أكثر.

وقلت (يقطرن) فدللت على قلة القتل، ولو قلت (يجرين) لكان أكثر لانصباب الدم. وقلت (دماً) والدماء أكثر من الدم.

وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدوك![1].

وقيل أن النابغة الذبياني هو الذي انتقده بما سبق. « وقيل بأن حساناً رد عليه فقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك»[2].

وأجاب بعضهم بأن قول حسان أبلغ وزيف قول النابغة[3].

استنوقت الجمل

لقد شاع النقد بين العرب وبين بلغائها، « فهذا الشاعر الجاهلي المسيب بن علس ينشد :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكـــدم

١- إعجاز القرآن للرافعي (٢٢٥).

٢- سوق عكاظ (١٨٥).

٣- خصائص التركيب د. محمد أبو موسى (ص ١٥).

الصَّيعرية : وسم في عنق الناقة .

المكدم : الفحل الغليظ الصلب

« أي أنه يتناسى همومه بأسفاره التي يندفع بها مغامراً مستبسلاً على بعير قوي ناجٍ راكبه» .

لما سمع الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد هذا البيت قال للمسيب منتقداً «استنوقت الجمل» أي أنك وصفت البعير الذكر بوصف الناقة .

فكان لهم ذوق دقيق في الفهم والنقد»[1] .

ابن هرمة

روي أن رجلاً قال للشاعر ابن هرمة : ألست القائل

بالله ربِّك إن دخلت فقل لها   هذا ابنُ هرمة قائماً بالباب

ابن هرمة : لم أقل «قائماً» ، أكنت أتسول؟

الرجل : «قاعداً بالباب» .

ابن هرمة : أفكنت أبول؟

الرجل : فماذا؟

ابن هرمة : واقفاً بالباب . وليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى[2] .

ذوق النبي ﷺ البلاغي

قال البراء بن عازب رضي الله عنه : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله

١- خصائص التركيب د . محمد أبو موسى (١٦) .

٢- الصناعتين (٦٦) ، أسس النقد الأدبي : د . أحمد بدوي (٤٥٢) .

علمني عملاً يدخلني الجنة . فقال : لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة ، اعتق النسمة وفك الرقبة . فقال : يا رسول الله أوليستا بواحدة؟

قال ﷺ : لا . إن عتق النسمة أن تفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في عتقها[1] .

ففرق النبي ﷺ بين عتق النسمة وفك الرقبة بالرغم من ظن الأعرابي أنهما سواء .

وكذا لما علّم النبي ﷺ البراء بن عازب رضي الله عنه دعاء النوم وفيه « آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت » . فلما أعاد البراء رضي الله عنه هذا الدعاء على النبي ﷺ قال : «آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبرسولك الذي أرسلت » . قال له النبي ﷺ : «لا . وبنبيك الذي أرسلت »[2] .

«فلم يقبل من البراء وضع رسول بدل نبي . وما ذلك إلا لاختلاف مدلولهما الدقيق . وإن بدا لبعض الناس أنهما بمعنى واحد»[3] . ذلك لبلاغة النبي ﷺ ومعرفته ﷺ بالفروق اللغوية للألفاظ ومدلولاتها . كيف لا وهو أفصح العرب وأبلغها !

علم المتشابه

من عجائب ما جاء في كتاب الله تعالى كثرة هذه الفروق اللغوية عندما تتكرر القصة أو يتكرر الموضوع في مواضع شتى . فترى فيها شيئاً من الاختلاف إما بالألفاظ أو بالأسلوب أو بزيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو بسط أو اختصار مما يثير التساؤلات في قلب قارئه والناهل من كنوزه والمتذوق لحلاوته .

١- رواه أحمد (٤ / ٢٩٩) بسند صحيح .
٢- رواه البخاري (٦٣١١) .
٣- الفروق اللغوية : د . محمد الشايع(٨٧) .

وقد ألف مجموعة من العلماء في القديم والحديث في الفروق اللغوية في كتاب الله تعالى والحِكَم الجليلة من وراء هذا الاختلاف والتشابه.

ولكن ربما يتبادر إلى القلب: كيف يستطيع المتدبر أن يحصل - بإذن الله تعالى - على المِلاك والقوام والعمدة في استباط الحِكَم والفوائد من هذه الفروق اللغوية في الآيات المتشابهة؟

فاستعنت بالله تعالى فجمعت بحمد الله وفضله جملة من الطرق والمفاتيح لتحقيق هذا المراد مع ضرب بعض الأمثلة.

ولا حرج في ذلك فقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يكثر من كشف معاني القرآن بوسائل عدة، لذا كان علي رضي الله عنه يثني على ابن عباس رضي الله عنهما ويقول: «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق». وهذا النهج أطبق عليه السلف والخلف بضوابط التفسير الإشاري المذكورة في مؤلفات علوم القرآن. وهذه الإشارات مما ضمنته العرب في أساليبها وكلامها، ويدخل فيما روي عن ابن عباس أنه قال: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله»[1].

وقبل البدء في بيان هذه الطرق والمفاتيح أنبه القارىء إلى أمرين اثنين:

أولهما: أحببت أن يعيش القارىء أحوال العرب البلاغية عند نزول القرآن، ومدى

١- رواه ابن جرير (١/ ٢٦) من طريق مؤمل بن إسماعيل عن سفيان عن أبي الزناد عن ابن عباس. وهذا سند ضعيف حيث لم يسمع أبو الزناد من ابن عباس ومؤمل بن إسماعيل سيء الحفظ. ورواه من طريق الكلبي عن أبي صالح مولى أم هانىء عن ابن عباس. وهذا إسناد ساقط بمرة، أبو صالح باذام ضعيف لا سيما في رواية التفسير ولم يسمع من ابن عباس، وإذا روى عن الكلبي فليس بشيء. والكلبي هو محمد ابن السائب متهم بالكذب.

اهتمامهم بالانتقاء الدقيق للألفاظ والتي قد تبدو مترادفة بالرغم من وجود فروق دقيقة بينها في المعنى. لذا ذكرته في فصل توطئة لموضوع الكتاب، وقد استللت جل مادة التوطئة من كتاب النبأ العظيم لمؤلفه د. محمد عبدالله دراز، وكذا من كتاب إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي رحمهما الله تعالى، وغيرها.

ثانيهما: قد يجد القارئ أن هذا الكتيب أغفل بعض الطرق التي ذكرها بعض العلماء، منها ترتيب السور في المصحف وأثره على الاختلاف في الآيات المتشابهة. والصحيح أن ذلك غير مؤثر لأن في مقدمة المصحف سوراً مدنية، وقد نزلت الآيات المكية قبل المدنية وكانت تشتمل على تلك البلاغات.
وكذا أغفل مراعاة الروي وهي الأحرف التي تنتهي بها الآيات. والصحيح أن حروف الروي هي في نفسها من الفروق التي ينبغي البحث عن حكمتها، والله أعلم.

وإليك طرق تحصيل الملاك لاستنباط حكم وفوائد الفروق اللغوية في الآيات المتشابهة كما وردت في هذا الكتاب الذي بين يديك، وهي معرفة ما يلي:
١- معاني المفردات.
٢- موضوع السورة.
٣- المخاطب.
٤- المتكلم عنه.
٥- المتكلم.
٦- المناسبة المعنوية للسياق.
٧- ما سبقها من الآيات.

٨- ما بعدها من الآيات .

٩- الحوادث وأسباب النزول .

وربما ما لم يرد إلى قلبي من الطرق أكثر مما جمعته في هذه الرسالة ، فأسأل الله تعالى السِّداد والسَّداد . فما فيها من خير فهو فضل محض من الله تعالى ، وليس عند جامعها إلا الذنوب ورجاء عفوه والافتقار إلى رحمته ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، والله أعلم .

عدنان عبدالقادر

ربيع آخر ١٤٢٩ هـ

دولة الكويت



١- معاني المفردات

قبل البحث عن سر الاختلافات بين الآيات المتشابهة والحكمة منها لا بد من معرفة معاني المفردات المختلفة التي وردت فيها، حينئذ يسهل التوصل إلى الحكمة والبلاغة بإذن الله تعالى.

وإليك بعض الأمثلة:

أ. العام والسنة

قال الله تعالى عن نوح عليه السلام: (**فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا**)[١] ففرق المولى بين السنة والعام. فذكر لبثه فيهم بـ (**السنة**) ومفارقته لهم بـ (**العام**)، فلم يقل سبحانه (إلا خمسين سنة). وذلك لما يلي:

أولاً: السنة في اللغة كثيراً ما تستعمل في الحول الذي يكون فيه الشدة والجدب[٢]، وانقطاع المطر أو قلته. «لذا يعبر عن الجدب بالسنة»[٣]. مما يدل عليه قوله تعالى: (**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**)[٤] أي أصبناهم بالشدة وانقطاع المطر وقلة الثمار والنبات.

فالسنة تستعمل في الأحوال الشديدة المتعبة المثقلة والتي قد يصاحبها كثير من المصائب. قال تعالى عن يوم القيامة: (**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**)[٥]

١- العنكبوت (١٤).
٢- الراغب في المفردات (٣٥٤).
٣- الراغب في المفردات (٣٥٤).
٤- الأعراف (١٣٠).
٥- المعارج (٤).

لكثرة المصائب والأهوال التي فيه إذ « بيَّن المشقة فيه بأنه قال (سَنَةٍ) ولم يقل عاماً، وبيَّن أنه يكون طوله على الكافر باعتبار ما يلحقه من الغم لشدة المخاوف »[1].

وقال سبحانه عن بني إسرائيل والأرض المقدسة: ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[2]، أي يتيهون في سيناء مع قلة المطر والنبات وكثرة المصائب، «ويحتمل أن يكون تيههم بافتراق الكلمة وقلة اجتماع الرأي، وأن الله رماهم بالاختلاف.. فتفرقت منازلهم... وينتقلون من موضع إلى موضع على غير نظام واجتماع »[3]، « فلا يهتدون إلى طريق ولا يبقون مطمئنين »[4].

وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾[5] لما قاساه من ألم الظلم لسجنه. وعن السنوات التي فيها عملهم الدؤوب في الزراعة والحرث وعدم الاستمتاع في المأكل قال لهم: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾[6] « دائبين مجتهدين »[7]. ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾[8]، « أي دبروا أكلكم في هذه السنين الخصبة وليكن قليلاً »[9].

ثانياً: أما (العام) فيستعمل في الأحوال التي يعم « فيها الرخاء والخصب»[10]. مما

١- نظم الدرر للبقاعي (٨ / ١٤٦) بتصرف.
٢- المائدة (٢٦).
٣- المحرر الوجيز (٥٣١).
٤- تفسير السعدي (٢٧٧).
٥- يوسف (٤٢).
٦- يوسف (٤٧).
٧- البقاعي (٤ / ٥٢).
٨- يوسف (٤٧).
٩- السعدي (٥٣٣).
١٠-المفردات للراغب(٣٥٤).

يدل عليه قول الله تعالى في العام الذي فيه الغوث في زمن يوسف عليه السلام: (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ)[١] . « إشارة إلى أنه يكون فيه من السعة بعموم الري وظهور الخصب وغزير البركة أمر عظيم »[٢] . « وفيه تكثر الأمطار والسيول وتكثر الغلات وتزيد على أقواتهم حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم »[٣] .

وفي الحول الذي يشعر العرب فيه بالأمان يحلون الشهر الحرام فيجعلونه شهر حلال لا شهر حرامٍ، ثم يحرمونه في العام الذي بعده قال الله تعالى (يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا)[٤] . «عبر عن الحول بلفظ يدور على معنى السعة إشارة إلى أنهم يفعلونه ولو لم يضطرهم إلى ذلك جدب سنة ولا عض زمان، بل بمجرد التشهي»[٥] .

رابعاً: أما الآية المذكورة فقد لبث نوح عليه السلام في قومه يدعوهم ليل نهار « لا يني بدعوتهم ولا يفتر في نصحهم يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً فلم يرشدوا ولا اهتدوا بل استمروا على كفرهم وطغيانهم »[٦] . واستعمل كل الوسائل بالرغم من السخرية والاستهزاء والتهديد من قبل قومه، فكانت سنوات متعبة مرهقة مثقلة بالهموم والأكدار والأحزان بسبب جواب قومه له وكفرهم وسخريتهم فقال تعالى (أَلْفَ سَنَةٍ) « عبر بلفظ (سَنَةٌ) ذماً لأيام الكفر »[٧] « لما قاساه»[٨] .

١- يوسف (٤٩).
٢- البقاعي (٤ / ٥٣).
٣- السعدي (٥٣٣).
٤- التوبة (٣٧).
٥- نظم الدرر (٣/ ٣٠٩).
٦- السعدي (٨٦٥).
٧- نظم الدرر للبقاعي(٥/ ٥٤٣).
٨- حاشية الشهاب (٧ / ٣٣٨). روح المعاني (٢٠ / ١٤٣).

« فلما كان عمر نوح عليه السلام مشتملاً على ما قاساه من أذى قومه وشدائد تعذيبهم له وصبره عليهم حسن تفسير عمره بالسنة ، وأما الخمسون الناقصة من الألف فإنه لم يكن فيها شيء من الأذى والشدائد ففسر عددها بالعام»[١] . إذ لما أهلكهم الله تعالى عم الإيمان والخير على الأرض فقال (إلاَّ خَمْسِينَ عَامًا) . «إشارة إلى زمان حياته عليه السلام بعد إغراقهم كان رغداً واسعاً حسناً بإيمان المؤمنين وخصب الأرض»[٢] . «فاستراح منهم وبقي في زمن حسن»[٣] مما بقي له من حياته .

ثم لم يقل سبحانه (تسعمائة وخمسين) لأن ذكر الألف «أفخر وأفضى إلى المقصود» إذ في ذكر الألف عرض « لما ابتلى به نوح من أمته وما كابده من طول المصابرة ليكون ذلك تسلية للنبي ﷺ فيما يلقاه من أمته وتثبيتاً له ، فإن ذكر رأس العدد الذي هو منتهى العقود وأعظمها أوقع وأوصل إلى الغرض»[٤] . ألا ترى إلى العروض على السلع إذا أرادت أن تغري بثمنها تنقص عن المائة ديناراً أو نصفاً ، وكذا من الألف فيقال بتسعة وتسعين ديناراً أو تسعمائة وتسعة وتسعين ديناراً لأن الألف يستطيله السامع فيشعر بأنه مكلف . بينما إذا أعلنت الشركات عن أرباحها تجبر الكسر فتقول ما يقارب المليار أو ربع المليار وحقيقة الربح دونه ، والله أعلم .

١- الروض الريان (٢ / ٣٠٦) .
٢- نظم الدرر (٥ / ٥٤٣) .
٣- الدر المصون (٩ / ١٣) ، الجمل (٦ / ٦٢) .
٤- المثل السائر لابن الأثير (٢ / ٢٨) . فتح الرحمن لزكريا الأنصاري (٤٣٦) . راجع الروض الريان (٢ / ٣٠٦ - ٣٠٧) .

ب. الأيكة ومدين

قال الله تعالى في قصة نبيه شعيب عليه السلام: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾[١] ولم يقل المولى (أخوهم شعيب) بينما ورد في نفس السورة في كل الأنبياء أخوهم نوح، أخوهم هود، أخوهم صالح، أخوهم لوط. ذلك لما يلي:

أولاً: ينبغي معرفة أن « أصحاب الأيكة هم أهل مدين »[٢] على القول الراجح.

ثانياً: لا بد وأن ينظر إلى المقصود من كلمة (**الأَيْكَةِ**) وكلمة (**مدين**). أما (**مدين**) فهو اسم للمدينة التي بعث فيها شعيب عليه السلام، فهو أخوهم في الانتساب إلى المدينة، كأن تقول للكويتيين: أخوكم الكويتي فلان فعل كذا، وتقول للمصرين: أخوكم المصري فلان فعل كذا.

وقيل (**مدين**) اسم الجد الأعلى للقبيلة، فشعيب أخوهم في الانتساب إلى الجد الأعلى، وهذا متعارف عليه بين الناس وبين أهل القبيلة، لذا قال سبحانه في عاد وهو الجد الأعلى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾[٣]، وفي ثمود وهو الجد الأعلى قال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾[٤]، لذا إذا ورد اسم مدين يقول تعالى: ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾[٥] في كل سور القرآن لأنه أخوهم في الانتساب إلى الجد الأعلى مدين.

ثالثاً: أما (**الأَيْكَةِ**) فهو اسم للشجرة التي كان يعبدها قوم مدين، وإذا نسب القوم

١- الشعراء (١٧٦-١٧٧).

٢- تفسير ابن جرير (١٩ / ٦٥) ورواه عن ابن عباس بسند منقطع. تفسير ابن كثير (الشعراء : ١٧٦)، التحرير والتنوير (١٣ / ٧١).

٣- الأعراف (٦٥).

٤- الأعراف (٧٣).

٥- الأعراف (٨٥).

إلى الشرك وإلى ما يعبدونه من دون الله أصبح كل من شاركهم في عبادة الآلهة المذكورة أخاً لهم في الديانة . كأن تقول للمسلمين : أخوكم المسلم فعل كذا ، وتقول للنصارى : أخوكم النصراني فعل كذا .

رابعاً: أما شعيب عليه السلام فلم يعبد شجرة الأيكة « فلم يكن أخاً لهم في الدين»[1] . بل تبرأ من شركهم وتحداهم إذ قال لهم : ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾[2] ودعاهم إلى عبادة الله وحده ، فلا يصلح أن يقال في حقه أنه أخوهم في عبادة الأيكة . فبرأ الله تعالى شعيباً من مشاركتهم في عبادة شجرة الأيكة فقال : ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فليس شعيب أخاهم في عبادة الأيكة .
فتلخص مما سبق أن الله تعالى « لم يقل ها هنا (أخوهم شعيب) لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهي شجرة كانوا يعبدونها . . فقطع نسبة الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسباً »[3] ، والله أعلم .

١- تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (٤ / ٦٤) .
٢- هود (٩٣) .
٣- تفسير ابن كثير (الشعراء : ١٧٧) .

جـ. النصيب والكفل

قال تعالى : (مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا)[١] . لماذا ورد النصيب في الشفاعة الحسنة بينما ورد الكفل في الشفاعة السيئة؟

أولاً: ينبغي التفريق بين النصيب والكفل لغةً .

النصيب في اللغة أصله من الرفع ، ونصب الشيء إذا «رفعه»[٢] وأقامه ، وجعله «علامة وعلماً»[٣] على الشيء ، لذا قالوا : «العلم المنصوب»[٤] أي المرفوع . وكانت الأنصاب تجعل علامات تدل على حدود المدينة والبلد فيقال «أنصاب الحرم أي حدوده»[٥] ، لذا تطلق على «الحجارة التي تنصب على رؤوس الجبال الصغيرة وتسمى القور ، ليستدل بها»[٦] المسافرون . فإذا رآها المسافرون فرحوا لوصولهم إلى مبتغاهم ، فحظوا وفازوا وحصلوا على غايتهم ، لذا يطلق النصيب على الحظ[٧] .

لذا ورد النصيب مع الشفاعة الحسنة لأن من شفع شفاعة حسنة يكون له حظ عند الله تعالى ، فينصب له حظه ليفرح به . إذ الجزاء من جنس العمل لأن المشفوع له كان يرفع بصره ويشرئب بحثاً عن بشرى أو علامة أو نصب يدل على قبول الشفاعة فناسب ذكر النصيب للشافع .

١- النساء (٨٥) .
٢- لسان العرب (٣/ ٦٤٤/ ١)، (٣/ ٦٤٥/ ١) .
٣- نفس المصدر .
٤- نفس المصدر .
٥- لسان العرب (٣/ ٦٤٤/ ٢) .
٦- نفس المصدر .
٧- لسان العرب (٣/ ٦٤٥/ ١) .

ثانياً: الكفل هو الثقل المحمول من الخلف لذا يطلق على العجز وردف العجز[١] .
ويطلق على الضمين العائل والكفيل الضامن لغيره لأنه حمله وجعله على كاهله .
قال تعالى : (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا)[٢] . لذا يطلق على من ثقلت عليه الحرب فيكون في آخر الجيش همته الفرار[٣] .

فوردت كلمة الكفل في الشفاعة السيئة لما يحمل الشفيع السيء من الإثم الذي يثقل كاهله « وما يناله من شدة »[٤] . فذوو الشفاعات السيئة قال الله فيهم : (**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ**)[٥] ، فشفاعته السيئة تثقل كاهله وتجره إلى الأسفل إلى نار جهنم أعاذنا الله منها . « فكلمة كفل توحي بأنه متكفل بجرائرها »[٦] «تغليظاً في الزجر»[٧] ، إذ يكون عليه وزر من ذلك الأمر .

« فلفظ الكفل يشعر بالحمل الثقيل ، ولفظ النصيب يشعر بالحظ الذي ينصب طالبه في تحصيله »[٨] .

ثالثاً: وقيل « بأن النصيب يشمل الزيادة والكفل هو المثل المساوي ، فاختيار النصيب أولاً لأن جزاء الحسنة يضاعف ، والكفل ثانياً لأن من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ففي الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده»[٩] .

١- لسان العرب (٣/ ٢٧٨).
٢- آل عمران (٣٧).
٣- لسان العرب (٣/ ٢٧٩).
٤- حاشية الشهاب الخفاجي (٣/ ٣٢٠). المفردات للراغب (٤٣٦).
٥- العنكبوت (١٣).
٦- في ظلال القرآن (٢/ ٧٢٥).
٧- نظم الدرر (٢/ ٢٩٠).
٨- ابن القيم في روضة المحبين (٣٤٥-٣٤٦) .
٩- روح المعاني (٥/ ٩٨). ونحوه في التحرير والتنوير للطاهر عاشور (٥/ ١٤٤).

رابعاً: أما ما ورد في قول الله تعالى لمؤمني أهل الكتاب: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ**)[1]. فورد كفل مع الرحمة لبيان أنها رحمة ثقيلة عظيمة رجحت كفة ميزان الحسنات على ميزان السيئات (**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**)[2]. « فقوله تعالى (**كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ**) وهما ضخمان تحصيناً من العذاب كما يحصن الكفل الراكب من الوقوع، وهو كساء يعقد على ظهر البعير فيلقى مقدمه على الكاهل ومؤخره على العجز»[3]. وهذا المدلول مناسب لسياق الآيات السابقة لها من ذكر الميزان وثقل الحديد: (**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ**)[4]، والله أعلم.

١- الحديد (٢٨).
٢- المؤمنون (١٠٢).
٣- نظم الدرر (٧/ ٤٧٠).
٤- الحديد (٢٥).

د. النون والحوت

ذكر الله تعالى يونس عليه السلام في سورة الأنبياء بـ (ذي النون) فقال سبحانه: (وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ)[1]، بينما ذكره في سورة القلم بـ (صَاحِبِ الْحُوتِ)[2] إذ قال تعالى: (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ). فما الحكمة من اختلاف اللقبين لشخص واحد وهو يونس عليه السلام إذ نسبه إلى (النُّونِ) في الأنبياء بينما نسبه إلى (الْحُوتِ) في القلم؟

أولاً: لابد وأن نفرق بين الحوت والنون. فالحوت اسم جنس لجميع أنواع السمك صغيراً كان أم كبيراً «ولا يتقيد بالكبيرة»[3]، كقول ابن عمر رضي الله عنه: «أحلت لنا ميتان الحوت والجراد»[4] أي جميع أنواع السمك. وكما حصل لموسى عليه السلام وفتاه عندما (نَسِيَا حُوتَهُمَا)[5] أي السمك الذي معهما في زبيلهم.

بينما النون يطلق على السمك الكبير، ولذا فسر كثير من العلماء قول الله تعالى: (نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)[6] قالوا: «الحوت الكبير الذي دحيت عليه الأرض»[7]، بصرف النظر عن مدى صحة هذا الخبر.

ثانياً: موضوع سورة القلم هو الأخلاق، أي الدعوة للتحلي بالأخلاق النبيلة

١- الأنبياء (٨٧).
٢- القلم (٤٨).
٣- الجمل (٥/ ١٥٧).
٤- صححه البيهقي (١/ ٢٥٤) والألباني في السلسلة الصحيحة (١١١٨).
٥- الكهف (٦١).
٦- القلم (١).
٧- تفسير الماوردي (٤/ ٢٧٧).

الشريفة . إذ مدح الله تعالى نبيه محمداً ﷺ في هذه السورة بقوله (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)[١] ونهاه عن سفاسف الأخلاق كالمداهنة والهمز والنميمة والاعتداء والإثم والبخل كقصة أصحاب الجنة .

وكذا نهي في هذه السورة عن مخالفة الأولى وهو من مكملات الأدب « فنهي عن الضجر والعجلة التي وقع فيها يونس عليه السلام »[٢] . فقال له : (وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ)[٣] فهو مقام لوم وعتاب لنبيه يونس عليه السلام وتحذير . فهذا المقام لا يصلح أن ينسب فيه يونس عليه السلام إلى شيء عظيم وهو النون فلا يصلح فيه (ولا تكن كصاحب النون)، لأن نسبته إلى شيء عظيم تعظيم في مقام العتاب واللوم وهذا لا يصلح، وإنما الملائم أن ينسب إلى شيء يدخل فيه الصغير زيادة في الزجر والهجر لما فيه من التوبيخ والعتاب .

وربما هذا الذي فهمه الصحابي لما قال له النبي ﷺ ممازحاً : «إني حاملك على ولد الناقة» . فكما يدخل البعير الكبير العظيم في كونه ولداً للناقة فكذا يدخل فيه البعير المولود حديثاً (الحاشي) . فالذي خطر في ذهن الصحابي أن المقصود الحاشي فقال : «وما أصنع بولد الناقة؟» فأجابه النبي ﷺ بأنه أراد البعير الكبير، ولكنه مازال ولداً للناقة، فأمه ناقة ولا بد، كبر البعير أم صغر فقال ﷺ : « وهل تلد الإبلَ إلا النوقُ»[٤] . فذكر الحوت بدلاً من النون في قوله سبحانه : (صَاحِبِ الْحُوتِ) فيه إشارة إلى الإعراض والتوبيخ وما يحمل فيه من العتاب، فناسب موضوع السورة .

١- القلم (٤) .
٢- المحرر الوجيز لابن عطية (١٨٨٨) (سورة القلم) .
٣- القلم (٤٨) .
٤- رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٦٨) والترمذي (١٩٩٢) وصححه الترمذي والألباني .

ومما يؤكد هذا المعنى أن يونس عليه السلام متى ما ذكر في سياق اللوم ذكر معه (الْحُوتِ) دون (النُّونِ) كما في سورة الصافات (فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)[1] .

ثالثاً: أما موضوع سورة الأنبياء فهو إثبات البعث، وأن الأرواح والأجساد والأجسام تحت إمرة الله تعالى إن شاء أماتها وفتت الأجساد، وإن شاء أبقاها وأبقى الأجساد. أما إذا تعرضت إلى جميع أسباب التمزق وخروج الروح ولكن لم يأذن الله لها فإنها لا تتمزق ولا تخرج منها الروح، ثم إذا قدر الله لها فتفتتت إن شاء بعثها وإن لم يشأ لم يبعثها.

فذكر سبحانه قصة يونس عليه السلام الذي التقمه الحوت العظيم، الذي لا يشك المرء أن هذا الحوت إذا التهم شخصاً ما فإن جسده سيتمزق في فمه قبل أن يصل إلى بطنه، فهو حوت عظيم لا مفر منه، ليس سمكة صغيرة تقتصر على جرح الجسد، وإنما تلتهمه كله ولا تبقي منه شيئاً فقال في سورة الأنبياء (وَذَا النُّونِ) أي الحوت العظيم الذي التقمه. لكن الله تعالى لم يشأ أن يتمزق جسده ولا أن تفيض روحه بالرغم من عدم قدرة يونس على الفرار منه لعظم الحوت وشدة بأسه، لكن الأجساد والأرواح بيد الله تعالى. فناسب تسميته بـ (ذَا النُّونِ) في سورة الأنبياء بدلاً من (ذي الحوت) لمناسبة موضوع السورة وتصوير الحدث للقارىء لإثبات قدرة الله على البعث وأن الأرواح بيد الله تعالى إن شاء أخرجها من أجسامها وإن شاء أبقاها، وكذا الأجساد إن شاء مزقها وإن لم يشأ لم تتمزق، وإن تمزقت إن شاء بعثها وإن شاء لم يبعثها، والله أعلم.

---

١ - الصافات (١٤٢).

هـ. ذو - صاحب

ذكر الله تعالى نبيه يونس عليه السلام في سورة القلم وسماه بـ (صَاحِبِ الْحُوتِ)[١] بينما في سورة الأنبياء سماه بـ (ذَا النُّونِ)[٢]. ما الحكمة ؟ لماذا وصف في الأول بـ (صَاحِبِ) وفي الثانية بـ (ذي)؟

أولاً: الصاحب من الصحبة وهو شدة القرب والالتصاق . والصحبة تطلق على العشرة لشدة القرب وشدة الالتصاق بينهما ، لذا يقال : صاحبه أي «عاشره»[٣] .

وكذا تطلق الصحبة على شدة الملازمة . « فكل ما لازم شيئاً فقد استصحبه»[٤] . لذا قال تعالى : (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ)[٥] . لم يقل سبحانه (وزوجته) فلربما كره المرء زوجته، أو حدثت بينهما جفوة، بينما صاحبته زوجته عشيقته الملازمة له التي لا تنفك عنه قلباً وقالباً ، الملتصقة به حباً وجسداً «لكونها عديلة روحه في الدنيا . . . لها من تمام الوصلة »[٦] . فهي «ألصق بالفؤاد وأعرق في الوداد»[٧] ، وبالرغم من ذلك فإنه يفر منها يوم القيامة .

وكذا قال سبحانه عن نفسه (وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ)[٨] أبلغ من زوجة لما تصوره هذه الكلمة من صور ذهنية وتخيلات، عندها يستقبح المرء نسبة الزوجة والولد إلى الله تعالى .

١- القلم (٤٨) .
٢- الأنبياء (٨٧) .
٣- لسان العرب (٢ / ٤٠٩) .
٤- لسان العرب (٢ / ٤١٠) .
٥- عبس (٣٤-٣٦) .
٦- نظم الدرر (٨ / ١٤٨) .
٧- نظم الدرر (٨ / ٣٣٣) .
٨- الأنعام (١٠١) .

ثانياً: ورد في سورة القلم ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾[1] حيث وردت الآية في مقام اللوم والعتاب والتحذير مما وقع فيه يونس عليه السلام لما غادر قومه مغاضباً دون إذن من الله تعالى. فلا تفعل فعل يونس عليه السلام الذي قدرنا عليه بسبب فعله أن التقمه الحوت فلازم بطنه مدة طويلة والتصق به التصاقاً لا يتوقع أن ينفك عنه ولا يخرج منه إلا برحمة من الله تعالى، فما كان يظن أن يخرج منه، ولا منقذ له من الخلق، ولا يعلم به أحد، ففي عرف الناس أنه قد مات، فإياك أن تقع فيما وقع فيه.

ثالثاً: ثم نسبه إلى الحوت ولم ينسبه إلى نفسه سبحانه لما فيه من الهجر والإعراض كقولك عن رجل: هو صاحب فلان، بالرغم من معرفتك به وقربه منك، كأنك تقول: هو ألصق به، وكذا تقول لآخر: قل لصاحبك، ما كأن بينك وبينه علاقة بالرغم من وجودها وهذا في مقام العتاب واللوم. كما قال أخوة يوسف عليه السلام عن بن يامين ﴿ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾[2] لم يقولوا (أبانا). لأن أبانا معرض عنا ومقبل على بن يامين، فلشدة التصاقه به وعدم انفكاكه عنه ما كأننا نحن أبناؤه، ما كأن له علاقة بنا.

رابعاً: قولك (صاحب العلم الكثير) ليس كقولك (صاحب العلم القليل) ففي الأولى تعظيم له وفي الثانية تهوين من شأنه، وقولك (صاحب القرآن والأحاديث النبوية) ليس كقولك (صاحب الأغاني) وكذا قولك (صاحب البيت الكبير والقصر العظيم) ليس كقولك (صاحب البيت) ففي الأولى تعظيم له. فالقول (صاحب النون) ليس كقوله (صَاحِبِ الْحُوتِ) ففي الأولى الإشارة إلى تعظيمه وليس كذلك في الثانية.

١- القلم (٤٨).
٢- يوسف (٦١).

خامساً: مما يدل عليه أن سورة القلم تسمى بسورة (نٓ) فمن المتوقع أن يقال فيها (ولا تكن كصاحب النون) من باب المشاكلة، وإنما كان هذا عن عمد أن تسمى السورة بـ(نٓ) وابتدأت بـ(نٓ) وعندما أتى ذكر يونس عليه السلام قال فيه (صَاحِبِ الْحُوتِ) لإظهار قصد اللوم والعتاب، ولله المثل الأعلى كما لو كان أمامك مجموعة من المتفوقين ولما سميتهم وابتدأت اسم كل منهم بقولك المتفوق فلان، المتفوق فلان إلا أحدهم وهو متفوق سميته باسمه ولم تسبقه بكلمة (المتفوق) لإظهار الإعراض واللوم.

وتتمة الآية تدل عليه (لا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)[١] وقارنه مع سياق آية الأنبياء (وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ)[٢].

سادساً: أما (ذو) فإنها تستعمل للوصف كقوله سبحانه عن نفسه (ذُو الرَّحْمَةِ)[٣]، (ذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ)[٤]، (ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)[٥]، (ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ)[٦]. وفيها تعظيم للموصوف. وكذا قال الله تعالى (وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ)[٧] فهو طعام عظيم يسبب غصة

١- القلم (٤٨-٥٠).
٢- الأنبياء (٨٧-٨٨).
٣- الأنعام (١٣٣).
٤- الرعد (٦).
٥- الذاريات (٥٨).
٦- الرحمن (٢٨).
٧- المزمل (١٣).

عظيمة، (وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ)[١] فالأوتاد والاهرامات عظيمة دلت على عظم ملك فرعون، (أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ)[٢] فلا يوجد عنده إلا التراب مما يدل على عظم المسكنة والفقر. ففي قوله تعالى (وَذَا النُّونِ) فالنون هو السمك العظيم ففيه تعظيم ليونس عليه السلام.

سابعاً: حين ذكر يونس عليه السلام في معرض الثناء عليه قيل ذا النون ولم يقل صاحب النون، والإضافة بـ «ذا» أشرف من الإضافة بـ «صاحب» لأن قولك «ذو» يضاف إلى التابع فتقول: ذو الملك، وذو الجلال، وذو العرش، وذو القرنين، فتجد الاسم الأول «ذو» متبوعاً (أي هو الأصل) وليس تابعاً، وذلك كله تفخيم للمسمى بهذا. بينما «صاحب» يضاف إلى المتبوع (الأصل)، «فصاحب» تابع وليس أصلاً فتقول: أبو هريرة رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ فالأصل رسول الله ﷺ و «صاحب» تابع للرسول ﷺ. ولا تقول: النبي ﷺ صاحب أبي هريرة رضي الله عنه[٣]. فتستعمل «ذو» للتعظيم.

الخلاصة: « أن ذا أبلغ من صاحب . . . لاقتضائها تعظيم المضاف إليها والموصوف بها بخلاف صاحب، ومن ثم قال سبحانه في معرض مدح يونس عليه السلام (وَذَا النُّونِ) والنهي عن اتباعه (لا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ) إذ (النُّونِ) لكونه جعل فاتحة سورة أفخم وأشرف من لفظ (الْحُوتِ) »[٤]، والله أعلم.

تنبيه: ويدخل في هذا الفصل معاني مفردات الحروف الهجائية وحروف المعاني كأحرف الجر وغيرها.

١- ص (١٢).
٢- البلد (١٦).
٣- الإعلام للسهيلي بتصرف نقلاً عن الدرويش في إعراب القرآن (٦ / ٣٥٦).
٤- روح المعاني (٢٩ / ٣٧).



٢- معرفة موضوع السورة

معرفة الموضوع الذي تدور حوله السورة من أنفع الطرق لمعرفة الحِكَم والأسرار للاختلافات الواردة في الآيات المتشابهة والقصص المتكررة في السور. وإليك بعض الأمثلة:

أ. الأيكة في سورة الحجر

ورد في سورة الحجر (وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ)[١] وأصحاب الأيكة هم قوم مدين. فما الحكمة من تسميتهم بأصحاب الأيكة في هذه السورة دون تسميتهم بأصحاب مدين؟

أولاً: سمي أصحاب مدين بأصحاب الأيكة، وأصحاب الأيكة «هم قوم شعيب كانوا يسكنون الغيضة»[٢] وفيها «الأيك: وهو الشجر الكثير الملتف الأغصان»[٣]. «أي أصحاب بقعة الأشجار باعتبار إقامتهم فيها وملازمتهم لها، وكانت عامة شجرهم»[٤].

ثانياً: موضوع سورة الحجر هو الحفظ، من تتبعها من أولها إلى آخرها تبين له هذا واضحاً. من ذلك قوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[٥]، ثم قال سبحانه عن السماء: (وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ)[٦]، ثم حفظ عباده المخلصين من الشيطان: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)[٧].

١- الحجر (٧٨).
٢- البيضاوي مع حاشية الشهاب (٥/ ٥٣٦).
٣- تفسير ابن جرير (١٩/ ٦٥)، الجمل نقلاً عن المختار (٤/ ١٩٥)، حاشية الشهاب (٥/ ٥٣٦).
٤- الجمل نقلاً عن الخازن (٤/ ١٩٥).
٥- الحجر (٩).
٦- الحجر (١٧).
٧- الحجر (٤٢).

ثالثاً: الأيكة هي الشجرة التي كان يعبدها أصحاب مدين من دون الله تعالى، فلم تحفظهم تلك الآلهة بل كانت سبباً في هلاكهم. لذا في نهاية السورة بين الله تعالى أنه حافظ لعبده ورسوله محمد ﷺ من أعدائه الكفار: (**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ**)[1].

فتبين أن سبب تسميتهم بأصحاب الأيكة في هذه السورة وهي سورة الحفظ كان لحكمة عظيمة وهي أن المعبودات من دون الله تعالى لا تحفظ عابديها ولا تغني عنهم شيئاً من العقوبة الإلهية (**وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ**)[2]، والله أعلم.

---

١ - الحجر (٩٤).
٢ - الحجر (٧٨).

ب. إلى فرعون وقومه، وملئه

أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، ولكن الآيات وردت بلفظين مختلفين متقاربين. إذ ورد في سورة النمل (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ)[١] وفي سورة القصص (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)[٢]. فلماذا اختلف اللفظ في السورتين؟

سورة النمل موضوعها القرآن الذي هو كلام الله تعالى، منَّة الله علينا، فكيف نتعامل معه ونتأدب؟! فبدأت السورة (تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ)[٣]، وانتهت (وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ)[٤]. وهذا الخطاب موجه لجميع طبقات المجتمع من الشريف إلى الوضيع، ومن الحر إلى العبد، فجاء الخطاب لموسى عليه السلام مناسباً لموضوعها (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ) والقوم يشمل جميع طبقات المجتمع.

أما سورة القصص فخطابها لمن علا وتجبر بملكه وسلطانه كفرعون أو بماله كقارون، فإن مصيره الهلاك والاضطراب والخسران، لذا كان جل حديث السورة عن قصتي فرعون وقارون والتعليق عليهما. فالخطاب لعلية القوم بأن الله تعالى سيريهم العقوبة على أيدي الضعفاء المظلومين: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾)[٥].

١- النمل (١٢).
٢- القصص (٣٢).
٣- النمل (١).
٤- النمل (٩٢).
٥- القصص (٤-٦).

فناسب أن يوجه الخطاب لطبقة الأشراف (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) أي فرعون وعلية القوم « من الرؤساء والكبراء والأتباع »[١] «لأن الملأ أشراف القوم»[٢] . والله أعلم .

١- تفسير ابن كثير ، القصص (٣٢) .
٢- غرائب القرآن (١٩ / ٨٩)، فتح الرحمن (٤٢٠) .

جـ. الغلام والولد

قالت مريم عليها السلام في سورة آل عمران: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾[١]، بينما قالت في سورة مريم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾[٢]. فلماذا الاختلاف في السورتين والقصة واحدة؟

إن مريم عليها السلام تكلمت بهذين المعنيين إذ سألت أنىَّ يكون لها ولد غلام، فذكر في إحداهما جزء من كلامها وفي السورة الأخرى الجزء الآخر. أما إذا أردنا أن نعرف الحكمة من اختيار لفظ خاص لكل سورة فلا بد من معرفة الفرق بين الغلام والولد ثم معرفة موضوع كل سورة على حدة.

أولاً: الفرق بين الولد والغلام أن الولد في اللغة يطلق على كل مولود ذكراً كان أم أنثى بينما الغلام لا يطلق إلا على الذكر.

ثانياً: موضوع سورة مريم هو المبشرات كما ورد في صدر السورة ﴿**إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ**﴾[٣]، وفي آخرها ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ﴾[٤]، ففيها بيان سعة رحمة الله تعالى بالمؤمنين بما يرسل إليهم من المبشرات المتنوعة حين تكتنفهم الفتن وتحيط بهم وتضيق عليهم الأمور، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى: إن الناس غالباً ما تستبشر بولادة الغلام أعظم من استبشارها بالأنثى لأن « مادة الغلمة دالة على غاية الكمال في الرجولية »[٥]. هكذا جبل عليه الناس سواء الآباء منهم والأمهات. لذا بشرها جبريل عليه السلام بلفظ الغلام ﴿**لِأَهَبَ لَكِ**

١- آل عمران (٤٧).
٢- مريم (٨).
٣- مريم (٧).
٤- مريم (٩٧).
٥- نظم الدرر (٤ / ٥٢٨).

غلامًا زَكِيًّا)[١] فهو أنسب للبشارة فأجابته (أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ) بلفظ الغلام الذي خاطبها به إذ « تقدم ذكر الغلام»[٢] . وهي مناسبة ثانية . فناسب ذكر الغلام في سورة المبشرات لما يلازمه من عظم البشارة عند أغلب الناس .

ثالثاً: بينما سورة آل عمران موضوعها مكانة النبي ﷺ عند الله تعالى (محمد رسول الله) وأنه أفضل البشر وسيد الأنبياء وفخرهم وشرفهم . فإذا قيل بأن عيسى ابن الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- فهو إذاً إله كقول النصارى ، فكان هذا كافياً في تفضيله على النبي ﷺ ، إذ الإله أفضل من المخلوق . فلا بد من نفي هذا المفهوم الخطأ والبيان بأن عيسى عليه السلام ما هو إلا مخلوق ولدته مريم عليها السلام .

فالمولود فيه إشارة إلى خروجه من موضع الولد وهو في أسفل جزء من البدن ، ويصاحب الولادة خروج النجاسات من الدماء وغيرها التي تحيط بالمولود . حينئذ يأنف العاقل أن يقبل أن يكون الإله مولوداً ، لأنه يقتضي خروجه من موضع قريب من موضع البول ، بل خرج من مخرج الحيض أسفل البدن ، وأحاطت به دماء الوضع المعروف حكمها ومخرجها . أهكذا يكون الإله؟ بل عيسى عليه السلام مخلوق كجميع المخلوقات . لذا وردت الآية (أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)[٣] فأكد بأنه مخلوق (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) ثم ورد بعدها (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ)[٤] .

١- مريم (١٩) .
٢- فتح الرحمن (٨٧) .
٣- آل عمران (٤٧) .
٤- آل عمران (٥٩) .

فإذا تبين أنه مخلوق من البشر جاز حينئذ أن يفوقه النبي ﷺ لأنه تبين عدم ألوهيته. فاجتمع في عيسى عليه السلام شرف الأم بينما اجتمع في النبي ﷺ الشرف من جهتين شرف الأم وشرف الأب ففاق عيسى عليه السلام فكان ﷺ سيد البشر وأفضلهم. فناسب أن يقال فيه «وَلَدٌ» بدل «غُلامٌ» لنفي إلهية عيسى عليه السلام، والله أعلم.

د. الشرقي

في سورة مريم قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾[١] فما فائدة ذكر المكان الشرقي؟ فلو حذف لما اختل المعنى.

إن كتاب الله تعالى مليء بالحكم الباهرة واليواقيت الزاهرة ولكنها درر كامنة قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٢]. فكل كلمة في موقعها لو حذفتها أو أزحتها عن مكانها لاختل المعنى.

أما سورة مريم كما سبق بيانه موضوعها البشارات التي يكرم الله تعالى بها العبد لحظة اشتداد المصائب عليه. ووردت كلمة مقاربة لها وهي كلمة الرحمة مكررة فيها ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾[٣]، ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾[٤]، ﴿مِّن رَّحْمَتِنَا﴾[٥]، وتكرر اسم الرحمن فيها ست عشرة مرة، إذ من رحمة الله تعالى أن يكرمك بالبشارات في أحلك المصائب، فجمعت فيها من ألوان البشارات. منها استجابة لدعوة غريبة وهي الرزق بالغلام لشيخ كبير وهو زكريا عليه السلام وقد كبرت زوجته وهي عاقر، ثم اسم جميل يستبشر به ﴿يَحْيَىٰ﴾[٦]، ثم يهيء الله لك لحظة المصيبة من لا تتوقعه ليهدئ من روعك ويخفف من آلامك وهو مواساة مولود جديد لأمه بصوته الحاني ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي﴾[٧]، ثم يهيئ لك من لا تتوقعه ليدافع عنك كما دافع الرضيع عيسى عليه السلام

١- مريم (١٦).
٢- هود (١).
٣- مريم (٢).
٤- مريم (٢١).
٥- مريم (٥٠).
٦- مريم (٧).
٧- مريم (٢٤).

عن أمه لحظة اتهامها (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ)[١] ، ثم من يذكر اسمك بخير ويخلده (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا)[٢] ، ثم انصباب الخيرات عليك من كل ناحية عندما تستحكم حلقات المصيبة كما انصب الخير لإبراهيم عليه السلام فبشر برؤية مولوده وحفيده .

ومن البشارات أن تسمع قارئاً يقرأ آية من كلام الله تعالى كأنك أنت المقصود وفيها مواساة كما سمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى بصوته الجميل الذي ملأ الكون بجماله (وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ)[٣] . ثم يهيئ الله تعالى لك من يقول بقولك متابعاً لك (وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا)[٤] ، ثم قد ترى رؤيا منام أو يرى آخرون رؤيا فيها بشارة لك ورفعة فتصدق الرؤيا كرؤيا إبراهيم ﷺ الذبيح إسماعيل عليه السلام ، فصدق اسماعيل رؤيا أبيه (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ)[٥] .

ومن البشارات ما يلقيه الله تعالى في قلوب الخلق من تعظيمك ومحبتك وكرامتك فيرفع قدرك فذكر إدريس (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)[٦] وهكذا تتوالى عليك البشارات أيام المصيبة إلى أن تنجلي عنك المصائب .

وإذا علمنا أن النفس تستبشر بالكلام الجميل وتتفاءل به كما قال النبي ﷺ : « أحب

١- مريم (٣٠).
٢- مريم (٥٠).
٣- مريم (٥٢).
٤- مريم (٥٣).
٥- مريم (٥٤).
٦- مريم (٥٧).

الفأل »[١] . قال الصحابة رضي الله عنهم : « ما الفأل ؟ » . قال ﷺ : « الكلمة الطيبة يسمعها أحدكم »[٢] . ومن الكلمات الجميلة التي تستبشر بها النفوس كلمة الشروق التي تدل على شروق الخير والبركة بشروق الشمس ، فالنفوس تستبشر بالشروق . علمنا حينئذ مناسبة قول المولى سبحانه : ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾[٣] في سورة البشارات لما فيها من الشروق وقرب انفراج المصيبة وسرعته . « فكان انفرادها في جهة مطالع الأنوار إشارة إلى ما يأتيها من الروح الإلهي »[٤] ، والله أعلم .

١- رواه مسلم (٢٢٢٣) .
٢-رواه البخاري (٥٧٥٥)، ومسلم (٢٢٢٣) .
٣- مريم (١٦) .
٤- نظم الدرر (٤ / ٥٢٧) .

هـ. الغربي

ما فائدة ذكر كلمة الغربي في قوله تعالى في سورة القصص: (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)[١]، إذ يغني عنه قوله: (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ)؟ فلماذا خص كلمة الغربي بالذكر؟!

كلمة الغربي تخدم موضوع السورة، فسورة القصص تتكلم عن أفول نجم طغاة المُلْك، وطغاة المال. فالمتجبر بملكه المعرض عن الله تعالى المتكبر على عباده مصيره الاضطراب والخزي وعدم الاستقرار وزوال ملكه (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾)[٢] فأفل ملكه في لحظة واحدة كما لو ألقيت صخرة في البحر ونبذتها فإنك لاتجد لها أثراً إلا موجات خفيفة تضمحل خلال ثوان. وهكذا ملك فرعون الذي شيده فيما يزيد على خمسين سنة ذهب في لحظة واحدة وأفل نجمه (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)[٣].

وكذا قارون الذي ما زال يجمع ماله عقوداً من السنين هلك في ساعة واحدة (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ)[٤] هكذا أفل نجم صاحب الثروة في ثوان.

١- القصص (٤٤).
٢- القصص (٤).
٣- القصص (٤٠).
٤- القصص (٨١).

فالغروب هو انحطاط الشمس وغيابها وذهابها وانصبابها إلى الأسفل، وهكذا غرب وأفل نجم أولئك، فناسب اختيار كلمة (الْغَرْبِيّ) في هذه السورة تفاؤلاً بغروب وأفول نجم طغاة الأرض (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)[1]، والله أعلم.

١- القصص (٨٣).

و. تحديد الموقع

ما فائدة تحديد الموقع الذي كلم الله تعالى فيه موسى في سورة القصص (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ)[١]؟ إذ يمكن أن يقال (نودي من جانب الطور) وكفى.

سورة القصص موضوعها الخوف والاضطراب وعدم الاستقرار لمن أعرض عن الله تعالى، وكمال الأمن لمن أقبل عليه وجاوره وقد سبق بيانه. فالعبد إذا خاف الخلق ألقى بنفسه في جوار الله تعالى ليكون في مأمن، إذ أمر الله تعالى أم موسى أن تلقي برضيعها موسى عليه السلام إلى جوار الله تعالى إذا خافت عليه من جنود فرعون (فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)[٢] فعندما ألقته في جوار الله تعالى رده الله تعالى إليها آمناً معززاً مكرماً يحبه كل أهل مصر.

وفيها أن موسى عليه السلام عندما قتل الفرعوني خاف من بطش فرعون فهاجر إلى الله تعالى قائلاً: (رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[٣]، وقال: (عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ)[٤]، فسخر الله له شيخ مدين فأمّنه قائلاً: (لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[٥]، وزوَّجه ابنته وسكن عنده عشرة أعوام.

ثم لما ألقى عصاه تحولت إلى ثعبان عظيم فولى منه مدبراً خائفاً فأمنه الله تعالى (أَقْبِلْ

١- القصص (٣٠).
٢- القصص (٧).
٣- القصص (٢١).
٤- القصص (٢٢).
٥- القصص (٢٥).

وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ)[١] ، ولما أرسله إلى فرعون أظهر موسى عليه السلام خوفه (إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ)[٢] فأمنه بقوله (سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ)[٣] .

وكذا لما أوذي نبينا محمد ﷺ هاجر إلى الله تعالى ، أمّنه الله تعالى وبشره بالرجوع (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ)[٤] ، فكانت المدينة أماناً له ، ثم رجع إلى مكة ظاهراً ظافراً منتصراً عام الفتح .

فإذا تبين أن السورة تتضمن تأمين من أقبل على الله تعالى سهل الجواب على السؤال . لمّا أرسل الله تعالى نبيه محمداً ﷺ إلى قريش تحداهم بصدق ما جاء به ، إذ حدد له الموقع والبقعة التي كلم الله عندها موسى عليه السلام بدقة . كما لو أخبرت عن وقوع حادث ثم حددت موقعه بدقة والتاريخ واليوم والساعة والدقيقة والثانية ، كان أوثق للسامع وأكثر اطمئناناً ممن لم يأت بالتحديد الذي جئت به ، فكأن لسان الحال يقول لأهل الكتاب ولقريش : من يتحدى ويثبت غير هذه البقعة وهذا الموقع ، بالرغم من أنك لم تكن موجوداً حينئذ (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ)[٥] ، (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ)[٦] ، (وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ)[٧] .

وإنما هذا التحديد من الله تعالى رسالة إلهية لذا قال بعدها : (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ

١- القصص (٣١) .
٢- القصص (٣٣) .
٣- القصص (٣٥) .
٤- القصص (٨٥) .
٥- القصص (٤٤) .
٦- القصص (٤٦) .
٧- القصص (٤٥) .

اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[1] ، وقال (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)[2] . ومما يؤكد صحة ما جئتَ به أن فئة من أهل الكتاب آمنوا برسالتك (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ)[3] .

فذكر الموقع بدقة تطميناً لقلب النبي ﷺ وأماناً له وأنه على حق وأنها رسالة إلهية، ذلك لشدة ما لاقاه النبي ﷺ من التشكيك من قبل قريش وأهل الكتاب. فالله سبحانه هو المؤمن الذي يؤمِّنُ عباده ويُصَدِّقُهم بالآيات والحجج والأدلة والشواهد والبراهين، والله أعلم.

١- القصص (٤٩).
٢- القصص (٥١).
٣- القصص (٥٢).

ز. يستمع ويستمعون

ورد في كتاب الله تعالى (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ)[١] كما في سورتي الأنعام ومحمد ﷺ، بينما في سورة يونس عليه السلام (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ)[٢] وورد بعدها (وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ). ما الحكمة من ورودها في يونس (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ)؟

أولاً: المقصود في جميع السور المذكورة هم جموع الكفار، ففي الأنعام (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) وكذا في سورة يونس كما هو الظاهر (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ). بينما المقصود بها في سورة محمد ﷺ المنافقون.

ثانياً: في آية الأنعام إشارة إلى استماعهم إلى قراءة النبي ﷺ للقرآن كل على حدة، وقد يصدف اجتماعهم دون تعمد ودون اتفاق لتحدي القرآن، وإن كان كل منهم يود لو تحدى القرآن، ففيها إشارة إلى أنها وردت « في قوم قليلين فنزلوا منزلة الواحد، أما في يونس في جميع الكفار فناسب الجمع »[٣]. بينما في سورة محمد ﷺ فإن المنافقين قد يحضرون لسماع النبي ﷺ ولا يفقهون شيئاً مما قال وقد طبع على قلوبهم، فيخرج كل منهم قائلاً (مَاذَا قَالَ آنِفًا)[٤].

ثالثاً: بينما سورة يونس موضوعها تشكيك الكفار في القرآن الذي جاء به النبي ﷺ والتشكيك في رسالته ﷺ. فأمرهم الله تعالى أن يجتمعوا اجتماعاً حاشداً من قبل

١- الأنعام (٢٥)، محمد (١٦).
٢- يونس (٤٢).
٣- روح المعاني (٧/ ١٢٥).
٤- محمد (١٦).

ساداتهم وبلغائهم ويدعوا من استطاعوا ومن أرادوا ليعين كل منهم الآخر في تقويم ما سيفترونه ليخرجوا بمنظوم واحد يتحدون فيه القرآن فقال سبحانه : (**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**)[١] «وَسَّعَ لهم في الاستعانة بجميع من قدروا عليه ووصلت طاقتهم إليه، ولم يقصروهم على من بحضرتهم، وادعوا لمعاونتكم من قدرتم على طاعته ولو ببذل الجهد من الجن والإنس وغيرهم للمعاونة »[٢] . « ثم لكثرة تفاوت المستمعين واختلاف أحوالهم فيه»[٣] . إذ من السمع سمع إدراك وفهم، فكل منهم يفهم غير فهم الآخر ويزيد وينقص على الآخر عند استماعهم القرآن للتحدي .

فأتت بعدها تلك الآية (**وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ**)[٤] . « لما كان المستمع إليه أكثر لأنهم أشهى الناس إلى تعرف حاله . . . فجمع دالاً على كثرتهم »[٥] .

ملخص ما سبق أن ما ورد « هذا في قوم قليلي العدد، حملت في موضع القلة على حكم اللفظ، وعاد الضمير إليها بلفظ الواحد (**وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ**) كما في سورة الأنعام وفي موضع الكثرة على حكم المعنى وعاد الضمير إليها بلفظ الجمع فقال (**وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ**) »[٦] .

ففيها إشارة إلى أنها وردت « في قوم قليلين فنزلوا منزلة الواحد، أما في يونس في

١- يونس (٣٨) .
٢- نظم الدرر (٣/ ٤٤٤) .
٣- تفسير المنار لرشيد رضا (٣/ ٤١٤) .
٤- يونس (٤٢) .
٥- نظم الدرر (٣/ ٤٤٧)، الجمل (٢/ ٣٣١)، فتح القدير (٢/ ٤٤٨)، روح المعاني (١١/ ١٢٥) .
٦- درة التنزيل (١١٧)، راجع ملاك التأويل للغرناطي (١/ ٣٠٨-٣٠٩)، فتح الرحمن (١٦٢-١٦٣) .

جميع الكفار فناسب الجمع»[١].

خامساً: أما في قوله تعالى (وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ) ولم يقل سبحانه (ومنهم من ينظرون إليك) فإنه لا يؤثر في النظر، سواءً اجتمعوا أم انفردوا بالنظر فكل منهم لا يؤثر على الآخر من جهة النظر. والله أعلم.

٧- روح المعاني (٧/ ١٢٥).

ح. فاسلك، فاحمل فيها

ورد في سورة هود قول الله تعالى لنوح عليه السلام (احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)[١] بينما في سورة المؤمنين (فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)[٢] . فما الحكمة من الاختلاف في اللفظ؟

أولاً: (احْمِلْ) معناها واضح، بينما (اسْلُكْ) تتضمن عدة معاني منها: الدخول والنحافة والاستقامة والسهولة.

فالدخول: كقولك أسلكته أي أدخلته[٣] .

والنحافة: كقولك رجل مُسَلَّك أي نحيف[٤] ، لذا يقال سلكت الخيط لنحافته، وكذا يطلق على المدخل الضيق كقوله تعالى (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ)[٥] ، وقوله تعالى (يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا)[٦] أي ندخله مدخلاً «في غاية الضيق»[٧] . فمدخلهم ضيق في النار وقد بين ذلك قوله تعالى (وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ)[٨] .

والاستقامة: كقولك الطريق سالك. أي لا اعوجاج فيه ولا عائق. وقال تعالى (يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ)[٩] من غير أدنى تعريج[١٠] ، يقال: ليس بِسُلْكى أي ليس بمستقيم[١١] .

١- هود (٤٠).
٢- المؤمنين (٢٧).
٣- لسان العرب (٢/ ١٨٨)، ملاك التأويل (٢/ ٥١٧).
٤- لسان العرب (٢/ ١٨٨).
٥- المدثر (٤٢).
٦- الجن (١٧).
٧- نظم الدرر (٨/ ١٩٣).
٨- الفرقان (١٣).
٩- الجن (٢٧).
١٠- نظم الدرر (٨/ ٢٠٠).
١١- لسان العرب (٢/ ١٨٨)، القاموس المحيط (٩٥٧).

والسهولة والخفة: كقول الله تعالى (سَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ)[١] أي أجراه بسهولة ويسر. (وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً)[٢] أي سهل لكم طرقاً تسلكونها[٣]، وكذا في قوله تعالى (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ)[٤]: أي أدخل على الاستقامة مع الخفة والرشاقة[٥].

ومن تتبع ورودها في الكتاب العزيز وجد فيها معنى التمكين. من ذلك (وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً)[٦] قال ابن عطية: بمعنى نهج ولحب[٧]. (لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا)[٨] (كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)[٩] (وَكَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)[١٠] (فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً)[١١] (يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا)[١٢] (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ)[١٣] أي أدخلوه... فيصير في غاية الضنك والهوان لا يقدر على حركة أصلاً[١٤]. وكذا في كلام العرب وأشعارهم.

من ذلك قول زهير:

تعلَّماها لعمر الله ذا قسماً   وافصد بذرعك وانظر أين تنسلك

أي أين تدخل وتتمكن.

١- الزمر (٢١).
٢- طه (٥٣).
٣- نظم الدرر (٥/ ٢٣)، تفسير الجلالين (٥/ ٧٦).
٤- القصص (٣٢).
٥- نظم الدرر (٥/ ٤٨٣).
٦- طه (٥٣).
٧- المحرر الوجيز (١٢٥٤).
٨- نوح (٢٠).
٩- الحجر (١٢).
١٠- الشعراء (٢٠٠).
١١- النحل (٦٩).
١٢- الجن (٢٧).
١٣- الحاقة (٣٢).
١٤- نظم الدرر (٨/ ١٣٥).

وكقول امرىء القيس :

نطعنهم سُلكى ومخلوجة كرَّت كلامين على نابل

سلكى : أي الطعنة المستقيمة . والمخلوجة التي في جانب[١] .

ففي قوله تعالى (فَاسْلُكْ فِيهَا) أي أدخلهم في السفينة بسهولة ويسر وثبتهم في المدخل الضيق منها ليثبتوا فيه ولئلا تؤثر عليهم حركة السفينة المضطربة في الأمواج الهائجة، ومكِّنهم فيها .

ثانياً: سورة المؤمنين مقصودها فلاح المؤمنين، وتسخير الأمور لهم في الدنيا والآخرة، لذا ورد فيها أن الدواب والسفينة مسخرة لنا وميسرة، وأنها هي التي تحملنا تيسيراً لأمورنا (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)[٢] . فلا يصح (احْمِلْ فِيهَا) لما في هذه الكلمة من إيحاء بتكليف نوح عليه السلام بالحمل والذي لا يخدم مقصود السورة .

ثم تتمة لمقصودها من تسخير الأمور وتيسيرها لهم أن يستعمل لفظ (اسْلُكْ) لما يدل عليه من سهولة دخولهم بالرغم من ضيقه ثم هو مدخل مستقيم لا اعوجاج فيه مما يسهل دخوله والمرور فيه فناسب الاستقامة التي هي سبب لفلاح المؤمنين وكذا تمكينهم .

ثالثاً: سورة هود مقصودها مواساة الدعاة وتحمل همومهم . يا رسول الله لا بد وأن تتحمل المصائب وكذا تتحمل هموم الدعوة والدعاة إلى أن يأتي نصر الله تعالى كما تحمَّل الأنبياء قبلك، وكذا ينبغي على جميع الدعاة إلى الله تعالى، وهكذا كان

١- لسان العرب (٢/ ١٨٨) .

٢- المؤمنون (٢٢) .

رسول الله ﷺ، لذا قال النبي ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها»[١].

فورد فيها اللفظ المناسب لمقصودها (احْمِلْ فِيهَا) إذ تحمَّل نوح عليه السلام هَمَّ صناعتها (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)[٢] ثم تحمَّل هَمَّ حَمْلِ الدعاة عليها ومن كل زوجين اثنين، فحمل عليها ما أمر به (احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ).

لذا لفظ (احْمِلْ فِيهَا) في سورة هود ناسب مقصودها، وكذا (اسْلُكْ فِيهَا) في سورة المؤمنين ناسب مقصودها. وكذا في سورة القصص ورد في حق موسى عليه السلام (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ)[٣] حيث مقصودها من ألقى بنفسه إلى جوار الله أمَّنه الله تعالى وثبته ويسر أموره وجعل أموره في استقامة ومكَّنه، والله أعلم.

١- رواه الطبراني (١٧/ ٢٨٦-٢٨٧)، وله عدة طرق، صححه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣١٩) والألباني في السلسلة الصحيحة (٩٥٥).
٢- هود (٣٨).
٣- القصص (٣٢).



٣- معرفة المخاطب

إن معرفة الشخص المخاطب يعين في معرفة الحكمة من اختلاف الألفاظ في الآيات المتشابهة. من ذلك:

أ. انبجست وانفجرت

ورد في سورة الأعراف في قصة موسى عليه السلام **(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا)**[1] بينما في سورة البقرة **(فَانفَجَرَتْ)**[2] بدلاً من (انْبَجَسَتْ). فما الحكمة؟

أولاً: الانبجاس هو انشقاق ينبع منه الماء[3]، ويخرج بقلة[4] من شيء ضيق.[5] فقوله تعالى (فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) أي بدأ ظهور الماء من تشقق الحجر. بينما الانفجار هو الانشقاق مع الانبعاث منه بقوة مع سعة الانتشار وكثرته[6]، فقوله تعالى (فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) أي انشق الحجر فانبعث منه الماء بقوة وانتشر بكثرة.

فكلا الأمرين حصلا : إذ ضرب موسى الحجر فانشق فنبع الماء بقلة ثم تفجرت وانبعثت بقوة اثنتا عشرة عيناً. « فكان رشحاً في الأول والانفجار ثانياً »[7].

١- سورة الأعراف (١٦٠).

٢- سورة البقرة (٦٠).

٣- لسان العرب (١/ ١٦١/ ٣)، نظم الدرر (٣/ ١٣٨).

٤- روح المعاني (٩/ ٨٨).

٥- الراغب (٣٧).

٦- نظم الدرر (١/ ١٤٥)، روح المعاني (١/ ٢٧١).

٧- الجمل (١ / ٨٥). ونحوه في النكت والعيون للماوردي (١ / ١١٣). غرائب القرآن (١ / ٢٩٨).

ثانياً: في سورة الأعراف طلب بنو إسرائيل من موسى عليه السلام إيجاد الماء ليسقون (إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ). فلما كان الافتقار من مخلوق إلى مخلوق لم يحصل الطالب إلا على النزر اليسير لأنه تعلق بمخلوق. فكان موسى عليه السلام هو المخاطب والمقصود إذ خاطبه بنو إسرائيل وطلبوا منه السقيا فقال تعالى: (فَانْبَجَسَتْ).

بينما في سورة البقرة سأل موسى عليه السلام ربه تبارك تعالى (وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ)[1]، فلما كان افتقار المخلوق موجهاً إلى الخالق بلا واسطة حينئذ تفجرت ينابيع الخير وعمّ فضلها وتفتحت أبواب الخير على مصراعيها (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[2]، (فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)[3] فكان الله جل جلاله هو المخاطب والمقصود فقال (فَانفَجَرَتْ). « فهذا اللفظ أبلغ لأنه انصباب الماء بكثرة »[4]. وورد في «سياق الامتنان »[5].

الخلاصة: سأل بنو إسرائيل السقيا من موسى عليه السلام فتضرع موسى إلى الله تعالى، وسأله السقيا، فأجابه الله تعالى أن اضرب بعصاك الحجر، فتشقق الحجر فبدأ الماء بالظهور (انبجس) وبعدها تفجرت العيون من الحجر فانبعث الماء بقوة. فذكرت الكلمات المناسبة في موضعها، فلما كان المسؤول والمخاطب مخلوقاً وهو موسى عليه السلام ناسب السائل اللفظ الدال على النزر اليسير (فَانْبَجَسَتْ)، وعندما كان المسؤول هو الله جل جلاله ناسب السائل الحصول على الخير الكثير العميم (فَانفَجَرَتْ)، والله أعلم.

١- البقرة (٦٠).
٢- غافر (٦٠).
٣- البقرة (١٨٦).
٤- فتح الرحمن (٢٨).
٥- نظم الدرر (١ / ١٤٥).

ب. الله يفعل والله يخلق

ورد في سورة آل عمران قصتا زكريا عليه السلام ومريم عليها السلام. ولكن العبارات مختلفة إذ قال الله تعالى في قصة زكريا عليه السلام (اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)[١] ، بينما في قصة مريم عليها السلام (اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)[٢] . فما الحكمة؟

أولاً: كلمة (يَفْعَلُ) هو عمل فيه عظمة «وقوة وكمال»[٣] . لما بُشر زكريا عليه السلام بالمولود على كبر سنه وعقر امرأته عجب من هذه البشرى وسأل (أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)[٤] إذ أسباب الحمل غير متوفرة فهذا شيء عظيم، فجاءت الإجابة من الله تعالى (كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)، « فمن الأمور العجيبة مثل ذلك الفعل وهو خلق الولد بين الشيخ الفاني الذي قد يئس من الولد والعجوز العاقر التي لا يرجى من مثلها الولادة، فيفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات»[٥]، «لإظهار هذه القدرة العظيمة »[٦] . «فلا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر»[٧] ، يخلق ويعمل الأمور العظيمة التي فيها «قوة وكمال»[٨] ولا تخطر في ذهن العبد.

١- آل عمران (٤٠).
٢- آل عمران (٤٧).
٣- نظم الدرر (٢/ ٧٨).
٤-آل عمران (٤٠).
٥- ابن جرير (٤ / ١٧٦)، الكشاف للزمخشري (١ / ١٨٨)، البيضاوي مع حاشية الشهاب (٣/ ٤٦ - ٤٧)، مدارك التنزيل لأبي البركات النسفي - بولاق (١٣٨٧ - ١٩٦٨).
٦- تفسير الجلالين (١ / ٤٠٩) مع شرحه الجمل.
٧- ابن كثير (آل عمران : ٤٢).
٨- نظم الدرر (٢ / ٧٨).

ثانياً: أما في قصة مريم عليها السلام فالنصارى يقولون بأن عيسى عليه السلام ابن الله (**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا**)[١] . وقالوا بأن هذا الابن جاء من أمه مريم عليها السلام وزعموا بأن الأب هو الله جل جلاله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. ويعلم الناس ماذا يحصل بين الأب والأم لتحمل بالجنين فتجيء بمولودها. فلو جاءت الآية (**اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**) لربما احتج النصارى بهذا النص القرآني لتأكيد زورهم وكذبهم ووجدوا لهم مدخلاً، ولأصبحت الآية وحدها موهمة، فقطع الله تعالى هذا الفهم وسد هذا الطريق عليهم فقال (**اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**). « لئلا يبقى لمبطل شبهة وأكد ذلك بقوله (**إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**)»[٢][٣] .

ثم إن الله تعالى أراد البيان بأن عيسى عليه السلام ما هو إلا مخلوق وليس بإله فلا يناسبه القول (**اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**) فهذا اللفظ لا يحقق المطلوب، وإنما الذي يحققه (**اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**).

ثالثاً: « وقيل لأن ما حدث لزكريا عليه السلام داخل في الإمكان العادي الذي يتعارف وإن قلّ، وفي قصة مريم عليها السلام (**يَخْلُقُ**) لأنه لا يتعارف مثله وهو وجود ولد من غير والد، فهو إيجاد واختراع من غير سبب عادي »[٤] .

الخلاصة: لما كان المخاطب في القصة الأولى زكريا عليه السلام ناسبه (**اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**)

١- الكهف (٥).
٢- آل عمران (٤٧).
٣- تفسير ابن كثير (آل عمران: ٤٧).
٤- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٢ / ٤٦٢).

لعظم الأمر وقوته وكماله، ولما كان المخاطب في القصة الثانية مريم عليها السلام ناسبها (اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) لنفي ألوهية عيسى عليه السلام فما هو إلا مخلوق، وقطع الطريق على النصارى وإبطال اعتقادهم في عيسى عليه السلام. فاختلف السياق في الآيتين لاختلاف المخاطَب، والله أعلم.

جـ. السقاية والصواع

ورد في سورة يوسف (فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ)[1]. فالمقصود بالسقاية هو الصواع، لماذا سماه في البداية (السِّقَايَةَ) ثم سماه بالصواع فقال: (صُوَاعَ الْمَلِكِ)؟ لماذا لم يقل (نفقد سقاية الملك)؟

أولاً: يوسف وبن يامين شقيقان من أم واحدة وباقي الأخوة العشرة من أمهات أخر. وكان الأخوة قد آذوا يوسف عليه السلام وبن يامين أشد الإيذاء إلى أن اتهموا يوسف عليه السلام بالسرقة وحسدوه وعزموا على قتله، ثم اتفقوا على إلقائه في الجب وهو طفل لم يبلغ، فتخلصوا منه ولم يكن في قلبهم رحمة عليه ولا على أبيهم الذي مازالوا يتهمونه بالضلال المبين والهلاك. ثم تفردوا بأخيه بن يامين فآذوه، وصبوا جام غضبهم وحسدهم وظلمهم عليه، فلقي منهم ألواناً من الأذى والحسد.

ثانياً: بعد سنين عديدة من إلقاء يوسف عليه السلام في الجب قدر الله أن أصبح رئيساً لوزراء مصر (عزيز مصر) ووزير المال والاقتصاد. ثم أصابت المجاعة بلاد مصر وأفريقيا والشام مدة سبع سنين. وكان الملك قد جعل يوسف عليه السلام رئيساً للوزراء ووزيراً للمال والاقتصاد وهو عصب الدولة، وهو المسؤول عن توزيع القمح والطعام الذي ادخروه قبل سنوات المجاعة لمثل هذه المجاعة.

ثالثاً: السقاية هو الصواع فهو إناء « قيل: كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعاً يكال به»[2]. لذا قالوا: « هو صاع من ذهب مرصع بالجواهر »[3]. « واتخذ هذا

١- سورة يوسف (٧٠-٧٢).
٢- الكشاف (٢ / ٢٦٧).
٣- الجلالين (٤ / ٦٠)، روح المعاني (١٣ / ٢٤).

الإناء مكيالاً لعزة الطعام في ذلك الوقت »[١] . ولشدة حرص الملك على عدم الجور وعدم الظلم في تقسيم القوت على رعية مملكته العظمى والدول القريبة جعل إناء الذهب الخاص به والذي يستعمله لسقايته وللشرب منه جعله مكيالاً يكال به . والمكيال عند العرب يسمى بالصواع أو الصاع .

رابعاً: دخل أخوة يوسف عليه معهم بن يامين ولم يعرفوا يوسف ولكنه عرفهم ، واستخدم حيلة شرعية فانفرد بأخيه بن يامين وأخبره بأنه أخوه يوسف ، ففرح بن يامين أشد الفرح ، وتوسل إلى يوسف أن لا يتركه يرجع مع إخوته وإنما يبقى معه في مصر . فاتفق يوسف عليه السلام معه على أن ينجيه منهم بأن يحتال له ، ويجعل سقاية الملك في متاعه ، ثم يسأل عنه فتقوم الحاشية بالبحث عنه ليجدوه في نهاية الأمر في رحل بن يامين . وفي شريعة يعقوب عليه السلام أن من سرق يصبح رقيقاً للمسروق منه مدة سنة . فظاهر الأمر السرقة ليترك الأخوة أخاهم بن يامين عند يوسف عليه السلام رقيقاً ، وباطنه تمام الحرية لتحرر بن يامين من ظلمهم إلى عدل يوسف عليه السلام .

خامساً: (السِّقَايَةَ) كلمة تشير إلى النجاة وإعادة الروح والحياة إلى الجسد . إذ تشير كلمة (السِّقَايَةَ) إلى الماء والشراب الذي تحيا به الأبدان (**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ**)[٢] .

ثم في نفس السورة وردت كلمة (االسِّقَايَةَ) في النجاة من الموت والعقوبة ، إذ قال صاحب السجن : (**إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا**)[٣] بينما قال الآخر (**إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ**

١- الجمل (٤ / ٦٢)، المحرر الوجيز لابن عطية (١٠٠٨) .
٢-الأنبياء (٣٠) .
٣- يوسف (٣٦) .

رأْسِي خُبْزًا)[١] فقال له يوسف عليه السلام : (أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا)[٢] أي ينجو من الموت بل يصبح من خاصة الملك ويسقيه خمراً وأما الآخر (فَيُصْلَبُ)[٣] . ثم قال للساقي : (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ)[٤] وهو صاحب سقاية الملك ، فالسقاية وصفٌ بالنجاة .

فدلت كلمة السقاية في اللغة على الشراب لإعادة الروح والحياة إلى البدن ، وكذا دلت في سورة يوسف على النجاة من القتل والصلب كما حصل للساقي .

عوداً إلى السؤال : فلما كان الكلام عن بن يامين الذي طلب النجاة والحياة السعيدة بجوار يوسف عليه السلام قال (جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ) . فسمى الإناء سقاية للدلالة على نجاة بن يامين وإعادة الحياة السعيدة له .

سادساً: كلمة الـ(صُوَاعَ) تدل على الكيل ، وأغلب من يكيل يظلم ويطفف في كيله إلا من رحم الله تعالى (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)[٥] . فذكر كلمة الصواع إشارة إلى الاحتياج إلى العدل وعدم الجور في الكيل .

فلما كان الكلام مع الأخوة الذين ظلموا وجاروا وينقصهم العدل واتسموا بالجور في الكيل والتطفيف خاطبهم المؤذن بقوله (أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) ، ثم قيل لهم : (نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ) فناسب ظلمهم وجورهم كلمة الـ(صُوَاعَ) لا كلمة (السِّقَايَةَ) .

١- يوسف (٣٦) .
٢- يوسف (٤١) .
٣- يوسف (٤١) .
٤- يوسف (٤٢) .
٥- المطففين (١-٣) .

سابعاً: فلما بحث عنه وجدوه في متاع بن يامين. فكان فيه نجاته من إخوته وخلاصه منهم فقال سبحانه (ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ) أي استخرج السقاية (اسْتَخْرَجَهَا) فذكر بصيغة المؤنث لأن فيه النجاة ولم يقل (ثم استخرجه) أي استخرج الصواع لأن المقام مقام نجاة وخلاص وإعادة الحياة السعيدة لمقامه بقرب أخيه، والله أعلم.

فكل كلمة محكمة في مكانها ومحلها (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)[1].

١- هود (١).

د. يغفر لكم ذنوبكم، ومن ذنوبكم

جاء في سورة الصف قول الله تعالى (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)[١]، فلم يقل سبحانه (مِّن ذُنُوبِكُمْ)[٢] كما في سورة نوح، فما الحكمة؟

أولاً: وردت (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) في حق المؤمنين إذ وردت بعد قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)[٣]. « أي إن تؤمنوا وتجاهدوا يغفر لكم»[٤]. فهي مغفرة « شاملة للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله مكفر للذنوب ولو كانت كبائر»[٥].

ثم « يدخلكم الجنات والمساكن الطيبات والدرجات العاليات ولهذا قال (وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ثم قال (وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ)»[٦].

ثانياً: أما في سورة نوح فقد قال الله تعالى في خطاب نبي الله نوح عليه السلام لقومه الكفار (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ)[٧] فقد وردت في خطاب الكفار أي «بعض ذنوبكم»[٨] فلم يقل لهم (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ).

١- الصف (١٢).
٢- نوح (٤).
٣- الصف (١٠-١١).
٤- تفسير الأيجي (٩٦٩).
٥- السعدي.
٦- ابن كثير (الصف: ١٢-١٣).
٧- نوح (٤).
٨- البيضاوي (٨/ ٢٧٨)، المحرر الوجيز (١٩٠٢).

ذلك أن من يدخل في الإسلام أصناف: منهم من يدخل تائباً من كل ما سبق من الذنوب آيباً إلى الله تعالى منيباً قد أقبل على الله بقلبه وجوارحه فهذا الذي قال فيه النبي ﷺ لعمرو بن العاص: « إن الإسلام يهدم ما كان قبله»[١].

ومنهم من يدخل في الإسلام موحداً لله تعالى ولكنه لا يريد أن يترك كل ما كان عليه في جاهليته كما ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[٢]، وكما هو حال كثير ممن يدخل في الإسلام ويبقى على معاصيه لا سيما إذا صاحبه تخويف بالعقوبة الدنيوية على كفره، وكما قال سعد رضي الله عنه للنبي ﷺ: يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً وهو مؤمن، فأعادها سعد ثلاثاً والنبي ﷺ يقول: «أو مسلم». ثم قال ﷺ: « إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه خشية أن يكب في النار على وجهه»[٣].

« فدل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام. فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادَّعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك»[٤].

فالمشترك بين أصناف التائبين من قوم نوح هو التوبة من الشرك والكفر. ففي قوله ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ « ينصرف بادئ ذي بدء إلى ذنوب الإشراك اعتقاداً وسجوداً»[٥]. لذا قيل «من هنا للتبعيض أي يغفر لكم الذنوب العظام التي وعدكم

١- مسلم (١٢١/ ٣٢١).
٢- الحجرات (١٤).
٣- متفق عليه. رواه البخاري (١٤٧٨)، ومسلم (١٥٠/ ٣٧٨).
٤- تفسير ابن كثير - الحجرات (٧/ ٣٦٨).
٥- الطاهر عاشور (٢٩/ ١٨٩).

على ارتكابكم إياها بالانتقام»[1] وهي الشرك لتوبتكم منه .

فخاطب جميع المراحل والأصناف أن كل فرد تائب يغفر له بعد إسلامه ما تاب منه . « أي يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها »[2] . فإذا تاب من الكفر ولم يتب من معاصيه كالخمر والزنى والسرقة والكذب غفر له كفره فقط دون الباقي ، ومن تاب من جميعها غفر له جميعها . فيغفر له من ذنبه على قدر توبته وطاعته ومتابعته للنبي ﷺ وتقواه . فليس الناس سواءً في تقواهم وتوبتهم ومتابعتهم للنبي ﷺ عند إسلامهم ، فمن أسلم من الكفر يغفر له شركه .

فلما اختلف المخاطب اختلفت الألفاظ ، والله أعلم .

١- ابن كثير (نوح : ٤)، روح المعاني (٢٩/ ٧٠)، الدر المصون (١٠/ ٤٦٧) .
٢- النكت والعيون للماوردي (٤ / ٣٠٩) .

هـ. رددنا، ورجعنا

قال الله تعالى في سورة القصص عن موسى عليه السلام (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ)[١] . بينما في سورة طه (فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ)[٢] . ولم يقل سبحانه (فرددناك) كما في آية القصص، فما الحكمة؟

أولاً: ينبغي معرفة الفرق بين اللفظين (رد) و (رجع).

أما (رجع) « فمعناه العود»[٣] إلى الحال السابق أو حال مماثل، وكذا يطلق على الفعل المماثل أو المقارب. قال الله تعالى (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ)[٤] أي اجعلوني أعود إلى حالي السابق في الدنيا من الحياة والصحة. وعن أخوة يوسف عليه السلام (لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)[٥] لعلهم يعودون إليَّ مرة أخرى كما أتوا إليَّ هذه المرة أي إتيان مماثل لهذا الإتيان. وكذا تطلق المراجعة على الإجابة والجواب (أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا)[٦] أي يفعل فعلاً مماثلاً أو مقارباً للسائل، إذ يلقي السائل كلاماً فيجيبه الآخر بكلام، فيفعل فعلاً مقارباً لفعل السائل وهو إخراج الكلام. ثم قد يصاحب الرجوع سرور وقد يصاحبه حزنٌ وقد لا يصاحبه حزن ولا سرور.

ثانياً: أما (رد) فهو رجوع يصاحبه ما يكره في حق أحد الأطراف. لذا يطلق على

١- القصص (١٣).
٢- طه (٤٠).
٣- لسان العرب (١/ ١١٢٩-١١٣١).
٤- المؤمنون (٩٩).
٥- يوسف (٦٢).
٦- طه (٨٩).

المطلقة (مردودة)، وكذا إذا كان في الوجه بعض قباحة أو عيب سمي الرَّدَّة. وأردَّت الناقة إذا بركت على ندىً فورم ضرعها وحياؤها. ورجل متردد إذا كان قصيراً متناهي القصر. وشيء ردٌّ أي رديء. وبحر مرد إذا هاج وكان كثير الموج. وفي لسانه ردة أي حُبسة. لذا أطلق على من رجع عن الإسلام إلى الكفر «ردّة»، ورد على الشيء إذا لم يقبله وكذلك إذا خَطَّأه[1]. لذا قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» أي مردود على صاحبه خيبة له.

« ففي لفظ (الرد) من الكراهية للنفوس ما ليس في لفظ الرجوع»[2]. « وورد في مثل ذلك قول الله تعالى (ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا)[3]... وفي الصحيح قوله ﷺ للشيطان حين تعرض للنبي ﷺ في صلاته: «فرده الله خاسئاً»[4].

ثالثاً: قال الله تعالى في سورة القصص (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ) ذلك أن فرعون كان يقتل الذكور من مواليد بني إسرائيل سنة، ويترك قتل المواليد الذكور في السنة التي تليها وهكذا (يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ)[5] لأن الكهان أخبروه أن هلاكه على يد رجل من بني إسرائيل. ولد موسى عليه السلام في السنة التي يقتل فيها الذكور، فخافت عليه أمه من القتل فأوحى الله إليها (أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي)[6] لقد تملكها الخوف على ابنها الرضيع. قيل لما اقترب الجنود من بيتها ألقته في اليم فتملكها الحزن عليه (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ)[7].

١- لسان العرب (١/ ١١٤٩ - ١١٥٠).
٢- كشف المعاني (٢٤٦).
٣- الكهف (٨٧).
٤- ملاك التأويل (٢/ ٦٤٦).
٥- القصص (٤).
٦- القصص (٧).
٧- القصص (٨).

حينئذ أصبح فؤاد أم موسى فارغاً، فكادت أمه تصرخ مطالبة بابنها (إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا)[١] . وغلب على ظن فرعون أن هذا المولود لبني إسرائيل فهمَّ بقتله فقالت زوجه (قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ)[٢] فامتنع عن قتله .

وأخذ فرعون يبحث له عن مرضعة، فلم يقبل أن يرضع من أي امرأة، وعندما عرض على أمه قبلها، فساور الشك مرة أخرى فرعون أن هذا المولود لبني إسرائيل وسيكون هلاك فرعون على يده. فعندما رجع موسى عليه السلام إليها كانت ترضعه رغبة ورهبة، وخوفاً وطمعاً، طمعاً ورغبة فيه لأنه ابنها، وخوفاً من أن يتأكد ظن فرعون حينئذ أن هذا المولود هو المطلوب قتله فيقدم على قتله، فكان رجوعه إلى أمه مشوباً بشيء من الخوف والكراهة. فذهب عنها الحزن على فقده لأنه الآن بين يديها، وقرت عينها به (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ) ولكنه سبحانه لم ينف عنها الخوف عليه حينئذ، فذهب عنها الحزن ولم يبين الله تعالى أنه ذهب عنها الخوف. فقال سبحانه عندما رجع إليها موسى (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ) وقبله (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ) أي سيرجع إليك رجوعاً مشوباً بالخوف من أن يطلع فرعون على أنه ابنك، فتحقق ذلك فصاحب رجوعه إليها شيء من الكراهة والكدر والخوف.
فلما كان الخطاب في هذه الآية لأم موسى (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ) قال تعالى(فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ) وتحقق وعد الله تعالى .

رابعاً: بينما الخطاب في آية طه لموسى عليه السلام لإظهار منن الله تعالى عليه. ففي رجوع موسى عليه السلام إلى أمه لم يصاحبه شعور في نفس موسى عليه السلام بالكراهة والخوف

١- القصص (١٠).
٢- القصص (٩).

لكونه رضيعاً، بل ازداد إقبالاً عليها فرضع منها دون غيرها، بل كان أشد التصاقاً وراحة وسعادة وهو بين يدي أمه رضيعاً.

لذا لما كان الخطاب لموسى عليه السلام ولم يصاحب حاله حينئذ شيء من الكراهة قال له سبحانه (فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ) ، ولما كان الخطاب لأمه التي صاحبها شيء من الكراهة والخوف في رجوعه إليها قال سبحانه (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ).

فلما اختلف المخاطب اختلفت الألفاظ، والله أعلم.

٤- معرفة المتكلم عنه

وكذا معرفة الشخص المتكلم عنه يعين في معرفة سر الاختلاف اللفظي في الآيات المتشابهة . من ذلك :

أ. غلام حليم وعليم

بشرت الملائكة الخليل إبراهيم ﷺ بمولود وصف بالعلم (بِغُلامٍ عَلِيمٍ)[١] في كل سور القرآن إلا في سورة الصافات (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ)[٢] ، هل من حكمة؟

أولاً: أما «الغلام الحليم فهو إسماعيل»[٣] ، وهو المولود الذي سبق اسحاق ، وهذه البشرى أتت بعد أن هاجر إبراهيم ﷺ من العراق إلى الشام ثم مصر وترك قومه مهاجراً إلى الله تعالى (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ)[٤] فبشر بإسماعيل ، « وفي نص كتاب أهل الكتاب أن إسماعيل عليه السلام ولد ولإبراهيم ﷺ ست وثمانون سنة ، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة ، وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم ﷺ أن يذبح ابنه وحيده - وفي نسخة أخرى : بكره »[٥] . واسماعيل عليه السلام هو وحيد إبراهيم ﷺ قبل ولادة إسحاق عليه السلام .

ووصف اسماعيل عليه السلام بالحلم لأنه كان حليماً في تقبله لرؤيا أبيه بذبحه (يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ

١- الحجر (٥٣)، الذاريات (٢٨).
٢- الصافات (١٠١).
٣- نظم الدرر (٦ / ٣٢٦).
٤- الصافات (٩٩-١٠١).
٥- ابن كثير (الصافات : ١٠١).

الصَّابِرِينَ)[١] « وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح »[٢] ، وهو الذي «وصف بالصبر في قوله تعالى(وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ)[٣] ، وكذا وصفه الله تعالى بصدق الوعد في قوله تعالى (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ)[٤] لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به »[٥] .

ثم أكرمه الله تعالى بهذا الصبر كبشاً فداءً لابنه وبشره بمولود آخر جديد ثواباً لقبوله بذبح ابنه ، فقال الله تعالى بعدها (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ)[٦] فبشره بابن جديد وسيكون نبياً. فالبشارة ليست بنبوة إسحاق إذ لم يقل سبحانه (وبشرناه بنبوة إسحاق) وإنما بشره بشارتين الأولى بمولود جديد اسمه اسحاق (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ) ، والثانية أنه سيكرم بالنبوة (نَبِيًّا) . وجاءت هاتان البشارتان على يد الملائكة عندما أتوه لإخباره بإهلاك قوم لوط .

ثانياً: المقصود « بالغلام العليم هو إسحاق عليه السلام»[٧] ، فهو ابن سارة زوج إبراهيم ﷺ . قال تعالى : (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ)[٨] فبشر باسحاق عند مجيء الملائكة لإخباره بإهلاك قوم لوط .

١- الصافات (١٠٢) .
٢- الكشاف (٣/ ٣٠٦)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤ / ٣٣٢) .
٣- الأنبياء (٨٥) .
٤- مريم (٨٥) .
٥- الكشاف (٣/ ٣٠٨)، مجموع الفتاوى (٤ / ٣٣٤) .
٦- الصافات (١١٢) .
٧- ابن كثير (سورة الحجر)، نظم الدرر (٦ / ٣٢٦) .
٨- هود (٦٩-٧١) .

وفي هذه الزيارة وصف المولود بالغلام العليم كما في سورة الذاريات (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ)[١]، وفي الحجر (وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ)[٢].

الخلاصة: إن وصف العلم جاء لإسحاق عليه السلام والحلم لإسماعيل عليه السلام فاختلف المتكلم عنه. والله أعلم.

١- الذاريات (٢٤-٢٨).
٢- الحجر (٥١-٥٣).

ب. بلغ أشده آتيناه، واستوى

قال الله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[١]، بينما قال في سورة القصص: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[٢] بزيادة (اسْتَوَىٰ)، فما الحكمة من هذه الزيادة؟

أولاً: في الآية الأولى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وردت في سورة يوسف عليه السلام، فالمتكلم عنه في هذه الآية هو يوسف عليه السلام. قيل كان ذلك في أولى سني الشباب أولى سني البلوغ لقوله تعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾، حيث « قيل إن بلوغ الأشد أن يحتلم، والأشد جمع شد وهو قُوى من العقل يحتمل التكليف. . . لأن الغلام إذا بلغ شدت أعماله، وكتبت حسناته وسيئاته»[٣]. و«روي عن ابن عباس أنه يبدأ من عشرين سنة»[٤]. وفي هذه السن يغلب على الشاب الغريزة الجنسية، فيكون في ذروة الشهوة مع عدم اكتمال النضج العقلي. وغالباً لا يكون الشاب حديث البلوغ في حالة اتزان تام، بل في وضع مضطرب تغلب عليه العواطف وفي قمة الانفعال، فإذا أحب اشتد حبه وغلب عليه، وإذا أبغض أحداً اشتد بغضه له، ويتضح هذا في شدة تعلق هذا السن بالرياضيين والفنانين والمشاهير وغيرهم إلى حد الثمالة.

ثانياً: تعرضت امرأة العزيز ليوسف عليه السلام وهي في كامل زينتها وجمالها وظهور مفاتنها حيث دعته إلى غرفة نومها فأغلقتها عليه وألقت بنفسها إليه، وقد أغلقت جميع أبواب القصر لئلا يدخل عليهم زوجها بالرغم من كونها سيدة على زوجها،

١- يوسف (٢٢).
٢- القصص (١٤).
٣- درة التنزيل (٢٣٩ - ٢٤٠).
٤- نظم الدرر (٤ / ٢٧).

أمرها غالب عليه. وكان يوسف عليه السلام في أولى سني الشباب، وهذا السن ينبئ عن ذورة الشهوة والغريزة الجنسية والعاطفة والانفعال إلا أنه لكمال عقله وتقواه وعفته امتنع عن المعصية. « هذا في غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهي إمرأة عزيز مصر وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة ويمتنع من ذلك ويختار أن يسجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه »[1].

فلو قيل فيه (وَاسْتَوَىٰ) أي «اعتدل» في السن «وتم استحكامه وبلغ المبلغ الذي لا يزاد عليه وذلك أربعون سنة»[2] ونضج لفهم منه أنه تعرضت له امرأة العزيز بعد استوائه ونضوجه أي بعد فوات هذه المرحلة العمرية وتجاوزها، بعد أن وصل إلى سن الاتزان العاطفي والنظر في عواقب الأمور ومعرفة المصالح والمفاسد، فمن اقترب من سن الأربعين لا يستجيب بسرعة إلى الإغراءات بل يتمهل وينظر فيما وراء ذلك. بينما المقصود بيان اتزان يوسف عليه السلام وعفته في ذروة مرحلة الانفعال عند الشاب قبل أن يستوي ويصل الأربعين « فلم ينتظر بيوسف عليه السلام الاستواء »[3] «إظهاراً لكمال نزاهته عليه السلام فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت ملكها ينادي بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفة والنزاهة »[4]. فآتيناه (حُكْمًا) « وهو العمل بالعلم واجتناب ما يجهل فيه وحكماً بين الناس وفقهاً »[5].

ثالثاً: وردت الآية الثانية في موسى عليه السلام وهو من بني إسرائيل فنشأ في مصر في

١- تفسير ابن كثير، سورة يوسف (٣٣).
٢- الكشاف (٣/ ١٥٩).
٣- درة التنزيل (٢٣٩ - ٢٤٠).
٤- الجمل نقلاً عن أبي السعود (٤/ ٢٢).
٥- الكشاف (٢/ ٢٤٨).

بيت فرعون. وكانت مصر آنذاك تتألف من طبقتين طبقة الملوك الفراعنة المتجبرة وأتباعهم من الأقباط، والطبقة الكادحة المستضعفة طبقة بني إسرائيل. وغالباً ما يستضعف أفراد الطبقة المتجبرة أفراد الشعب، فكانوا يقتلون ذكور بني إسرائيل ويعتدون عليهم بالضرب والإهانة والاحتقار «وعرف عن موسى نفرته من البغي وانتصاره للمظلومين»[1]. ففي أحد الأيام دخل موسى عليه السلام مصر ظُهراً في غفلة من الناس وخلودهم إلى البيوت فرأى رجلين يقتتلان أحدهما إسرائيلي والآخر فرعوني، فاستغاث به الإسرائيلي، فغلب على ظن موسى عليه السلام كالعادة أن الفراعنة هم الذين يبدؤون بالاعتداء، فانتصر للإسرائيلي وضرب الفرعوني دون قصد قتله فإذا هو ميت بين أيديهم لقوة موسى عليه السلام، فاستغفر موسى ربه تعالى.

قد يخطر في ذهن القارىء لهذه القصة أن نصر موسى عليه السلام للإسرائيلي بسبب العصبية القبلية الجاهلية، بينما في حقيقة الأمر أن «وكزه القبطي لم يكن إلا انتصاراً للحق على جميع التقادير»[2]. لذا كان الجواب أن هذه النصرة من موسى عليه السلام للإسرائيلي لم تنتج عن عصبية قبلية في أولي سني الشباب التي يكون فيها الشاب والفتى في قمة الانفعال والانتصار للعائلة والقبيلة والغضب لها إذ «لم يفعل شيئاً من ذلك إلى أن بلغ الأشد والاستواء» بعد أن تم نضجه. فجاءت هذه النصرة عن نضج كامل وتفكير سوي بعد تجاوز مرحلة الحداثة والانفعال الإنساني وذروة الشباب، وبعد بلوغ مرحلة الاعتدال والنظر في عواقب الأمور وفي المصالح والمفاسد، لذا حكم موسى عليه السلام بغلبة الظن وبالشواهد والقرائن الدالة على اعتداء

١- في ظلال القرآن (٥ / ٢٦٨٤).
٢- الطاهر عاشور (٢٠ / ٨٩).

الفرعوني فقال سبحانه (وَاسْتَوَىٰ) «جسده وتم طوله وعرضه وخرج من جملة الأحداث»[١] « وانتهى شبابه »[٢] «أي اعتدل في السن وتم استحكامه بإنتهاء الشباب، فتكامل عقله وصحت بصيرته وصلحت نحيرته وآن أوان خطابه»[٣]، وأوتي علم « الحكماء والعلماء أو سمتهم قبل النبوة، فلا يقول قولاً ولا يفعل فعلاً يستجهل فيه »[٤]. « فاستكمل وانتهى إلى أحسن الحالات في السن »[٥].

فلو لم يقل سبحانه (وَاسْتَوَىٰ) لفهم منه أن نصرة موسى عليه السلام للإسرائيلي كانت في بدء مرحلة البلوغ والانفعال الانساني، فناسب ذكر (وَاسْتَوَىٰ). والله أعلم.

ومناسبة أخرى لذكر (اسْتَوَىٰ) في قصة موسى عليه السلام. أن موسى عليه السلام كان قد اقترب من سن النبوة «فقد استوى وتهيأ لحمل أسرار النبوة، أما يوسف فلم يكن إذ ذاك قد بلغ هذا السن »[٦]. فاختلف اللفظ لاختلاف المتكلم عنه، والله أعلم.

١- درة التنزيل (٢٣٩ - ٢٤٠).
٢- تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (٤ / ١٢٧).
٣- نظم الدرر (٥ / ٤٧٠).
٤- الجمل نقلاً عن أبي السعود (٦ / ١٢).
٥- ملاك التأويل (٢ / ٥٣٩).
٦- الجمل (٤ / ٢١).

جـ. تجري تحتها، من تحتها

ورد قول الله تعالى في أهل الجنة (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)[١] في كل سور القرآن إلا في آية واحدة في سورة التوبة في قراءة (تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ)[٢] . ما الحكمة والسر فيها؟

أولاً: أهل الجنة صنفان منهم أهل اليمين وجاء فيهم قوله تعالى (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ)[٣] ، وهم الأبرار المؤمنون (إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا)[٤] ، وهم الذين قال المولى فيهم (وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ)[٥] وورد فيهم (وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)[٦] .

أما الصنف الثاني وهم الأعلى رتبة هم السابقون المحسنون عباد الله المقربون، وفيهم جاء (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)[٧] ، وقوله (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا)[٨] ، وورد فيهم (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)[٩] .

ثانياً: «مِنْ» في اللغة للابتداء، ففي قوله تعالى (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا) أي أن الأنهار تبدأ بجريانها في مستوى وطء أرجلهم لأرضها.

ثالثاً: في كل صنف درجات ومراتب يتراءاها أهل الجنة، كما قال النبي ﷺ: «إن

١- البقرة (٢٥).
٢- التوبة (١٠٠).
٣- الواقعة (٢٧).
٤- الإنسان (٥).
٥- فاطر (٣٢).
٦- الرحمن (٦٢).
٧- الواقعة (١٠).
٨- الإنسان (٦).
٩- الرحمن (٤٦).

أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال ﷺ: «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[١]. وأعلاها مطلقاً الفردوس الأعلى التي سقفها عرش الرحمن.

رابعاً: في قوله تعالى (تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ) وردت هذه الآية في السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار خير الناس بعد الأنبياء والرسل (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)[٢] جعلنا الله منهم. فأهل هذه الدرجة ينتقلون فيما بين أرضهم المنبسطة التي تجري فيها الأنهار في مستوى وطء أرجلهم لها كما في الآيات الكثيرة (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) إلى مواضع عالية بالغة العلو في فردوسهم أعلى من موضع جريان الأنهار « لبيان بعد منزلتهم في الفضل وعظم الدرجة من مؤمني الأعراب »[٣]، « فهي تخص بجنة هي أعظم الجنان رياً وحسناً وزياً »[٤]. «فَنَبَّهَ على عموم ريِّها وكثرة مائها»[٥].

فهم في غاية العلو الذي سقفه عرش الرحمن فلم يذكر سبحانه (مِن) الابتداء، وإنما يصلون إلى أعلى من موضع جريان الأنهار فقال سبحانه (تَجْرِي تَحْتَهَا) ولم يقل سبحانه (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا). فاختلف اللفظ لاختلاف المتكلم عنه، والله أعلم.

١- رواه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١/ ٧١٤١).
٢- التوبة (١٠٠).
٣- روح المعاني (١١ / ٩).
٤- نظم الدرر (٣/ ٣٨٠).
٥- نظم الدرر (٣/ ٣٧٩).

د- قاصرات ومقصورات

في سورة الرحمن ذكرت الحور العين فوردت في الآية الأولى (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ)[١] ، وفي الآية الثانية (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)[٢] . فلماذا في الأولى (قَاصِرَاتُ) وفي الثانية (مَّقْصُورَاتٌ)؟

أولاً: أهل الجنة ينقسمون إلى قمسين :

القسم الأعلى : وهم المحسنون وفيهم الرسل والأنبياء والصديقون وأهل الدرجات العلى . وهم السابقون المقربون عباد الله تعالى ، وهم الذين يؤدون الواجبات ويجتنبون المحرمات ويتقربون بالنوافل والسنن ويجتنبون المكروهات .

والقسم الآخر : وهم المؤمنون دونهم في المرتبة ، وهم الذين يؤدون الواجبات ويجتنبون المحرمات فقط ويسمون بالأبرار .

ثانياً: القسم الأول وهم المحسنون السابقون المقربون يعبدون الله تعالى كأنهم يرونه ، أعينهم لا تفارق محابه وطاعاته . قد قصروا أعينهم على ما يحبه الله تعالى فلا يلتفتون إلى غيره لشدة حبهم له ولتعلق قلوبهم به ، وإذا تعارضت طاعة الله تعالى وما يحبه مع طاعة غيره قدموه على جميع المخلوقات . فتقربوا إلى الله تعالى بالواجبات وكذا بالمستحبات والسنن المؤكدة وهم مخيرون في فعلها أو تركها لكنهم اختاروا فعلها . فلما قصروا أعينهم عليه سبحانه جازاهم الله تعالى بأن قصرت الحور العين أعينها عليهم اختياراً منهن لشدة «محبتهن لهم»[٣] وتعلقهن بهم . « قال الحسن البصري : والله ما هن متبرجات ولا متطلعات» إلى غير أزواجهن[٤] .

١- الرحمن (٥٦) .
٢- الرحمن (٧٢) .
٣- بدائع التفسير لابن القيم (٤ / ٣٣٨) .
٤- بدائع التفسير لابن القيم (٤ / ٣٣٥) .

ثم فيها دلالة على كمال جمال المحسنين إذا ما دخلوا الجنة لحسن أفعالهم، وكذا وضاءة ونضارة وجوه المحسنين التي جعلت أبصار الحور العين لا تفارق النظر إلى هذه الوضاءة، وهذه الوضاءة والنضارة ناتجة عن كثرة نظر هذا القسم إلى الله تعالى يوم القيامة حيث ازدادت نضارة وجوههم وزاد حسنها حين استمتعوا بكثرة النظر إلى الله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[١] «لذا قصرن أبصارهن عليهم لا ينظرن إلى غيرهم»[٢]. «فلا يرين شيئاً في الجنة غير أزواجهن»[٣]. قال ابن زيد: «تقول لزوجها: وعزة ربي ما أرى في الجنة أحسن منك. فالحمد لله الذي جعلك زوجي وجعلني زوجتك»[٤].

ثم فيها إشارة إلى الجمال الباهر الذي أكرم الله به الحور في الجنة أن جعل أعين المحسنين لا تتلفت إلى جمال غيرهن من المخلوقات في الجنة «فلا يدعهم حسنهن وجمالهن أن ينظروا إلى غيرهن»[٥].

فدلت الآية على أربعة أمور: كثرة النظر إلى الله تعالى فازدادت وجوههم حسناً وجمالاً، فتعلقت الحور العين بهم لجمالهم ولشدة محبتهن لهم فلم يلتفتن إلى غيرهم إختياراً «فقد قصرن طرفهن وهممهن على أزواجهن»[٦]. وكذا دل على جمال الحور مما قصر طرف المحسن عليهن إذ «لهن من الجمال ما قصرن به أزواجهن

١- القيامة (٢٢).
٢- الكشاف (٤/ ٥٤)، البيضاوي والشهاب الخفاجي (٩/ ٥٩).
٣- تفسير ابن كثير (الرحمن: ٥٦).
٤- الجمل (٧/ ٣٧٨).
٥- بدائع التفسير لابن القيم (٤/ ٣٣٥، ٣٣٨)، الشهاب للخفاجي (٩/ ٥٩)، السمين (١٠/ ١٨٢)، الجمل (٧/ ٣٧٨).
٦- نظم الدرر (٧/ ٣٩٥).

عن الالتفات إلى غيرهن لفتور الطرف وسحره وشدة أخذه للقلوب جزاء لهم على قصر هممهم في الدنيا على ربهم »[١] .

ثالثاً: أما المؤمنون الأبرار فقد التزموا بالأوامر والنواهي فقط خشية العقوبة دون السنن المؤكدة والمستحبات، فأكرمهم الله تعالى بالحور العين اللاتي أجبرن على النظر إليهم، وأجبرن على عدم النظر إلى غيرهم لما في لفظ (مَّقْصُورَاتٌ) « من الإشعار بالقسر في القصر »[٢] . فالتزمت الحور العين بالأوامر الإلهية بالنظر إلى أزواجهن، وكذلك التزمت الحور بالنواهي الإلهية في عدم النظر إلى غير أزواجهن.

وكذا «قصرن في خدورهن»[٣] ، وفيها إشارة إلى «قصر الرِّجل عن التبرج والبروز والظهور للرجال، فهن مخدرات مصونات»[٤] «مقصورات على أزواجهن ومحبوسات صيانة عن التبذل»[٥] للدلالة على «عظمتهن»[٦] ، فالجزاء من جنس العمل.

قيل « ضرب على كل واحدة منهن خيمة على شاطىء الأنهار سعتها كذا وكذا ميلاً، وليس لها باب، حتى إذا دخل ولي الله الجنة انصدعت الخيمة عن باب ليعلم ولي الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدام لم تأخذها، فهي مقصورة قد قصرها بها عن أبصار المخلوقين »[٧] « ولا شك أن من قَصَرت طرفها بنفسها أفضل ممن قُصِرت وإن كان الجميع مخدرات »[٨]، والله أعلم.

١- نظم الدرر (٧/ ٣٩٥)، راجع السعدي (١١٥٧).
٢- الشهاب الخفاجي (٩/ ٦١).
٣- الكشاف (٤/ ٥٥).
٤- الشهاب الخفاجي (٩/ ٦١).
٥- بدائع التفسير لابن القيم (٤/ ٣٤٠).
٦- نظم الدرر (٧/ ٣٩٩).
٧- تفسير الجمل نقلاً عن الحكيم الترمذي (٧/ ٣٨٢).
٨- ابن كثير، الرحمن(٧٢).

هـ. فتحت، وفتحت

قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[١] بينما قال سبحانه عن أهل الجنة: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[٢] فحذفت الواو عن الكفار، وذكرت في حق المؤمنين، ما الحكمة؟

أولاً: سأل المأمون يوماً يحيى بن المبارك عن شيء، فقال يحيى: لا وجعلني الله فداك يا أمير المؤمنين. فقال المأمون: لله درك، ما وضعت (واو) قط موضعاً أحسن من موضعها في لفظك هذا، ووصله وحمله.

فتأمل لو حذفت الواو كيف سيتغير المعنى ويصبح «لا جعلني الله فداك» وانظر إلى بلاغة وجود الواو وحذفها في كتاب الله تعالى.

ثانياً: إن الكفار يوم القيامة يُدفعون ويساقون سوقاً إلى نار جهنم، فإذا انتهوا إليها في ظلمة حالكة وأبوابها مغلقة فتحت في وجوههم. ففاجأهم وبغتهم لهيبها وشهيقها وفورانها وعذابها وما أعد الله -عز وجل- لهم فيها، « فهم بمنزلة من وقف على باب لا يدري بما يفتح له من أنواع الشر، إلا أنه متوقع منه شراً عظيماً ففتح في وجهه، وفاجأته روعته وألمه وما كان يتوقعه»[٣] وما لا يتوقعه، فقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾.

ثم هي «كأبواب السجن لا تترك مفتوحة بل تفتح بعد مجيئهم ثم تغلق»[٤] «ليبقى حرها إليهم إهانة لهم»[٥].

١- الزمر (٧١).
٢- الزمر (٧٣).
٣- بدائع الفوائد (٢ / ١٧٤ - ١٧٥).
٤- الشهاب الخفاجي (٨/ ٢٢٨)، بدائع الفوائد (٢ / ١٧٤ - ١٧٥)، روح المعاني (٢٤/ ٣٢).
٥- تفسير الجلالين (٦ / ٤٥٤).

ثم « في وقوفهم قبل فتحها مذلة لهم . . . وهكذا هو حال السجون ومواضع الثقاف والعذاب»[١] .

ثم فيها معنى زائد وهو « توقيف الخزنة لهم إلى مجيء الرسل»[٢] .

ثالثاً: « هذا بخلاف أهل الجنة، فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة، وهي مأدبة الله تعالى، وكان من تمام إكرام الضيف المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار، فيجيء فيلقاه مفتوحاً فلا يلحقه ألم الانتظار»[٣] . فقال سبحانه : (وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) أي وكانت قد فتحت أبوابها قبل مجيئهم كما قال تعالى : (مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ)[٤] إكراماً لهم بما يخرج إليهم من رائحتها وعبيرها، ويرون من زهرتها وبهجتها، ليكون لهم سائقاً ثانياً إلى ما لم يروا مثله .

فهي «كمنازل الأفراح»[٥] «تفتح لهم قبل قدومهم تكريماً لهم كما تفتح الأبواب لمن يدعى للضيافة»[٦] وقد «وقف خزنة الجنة منتظرين لهم»[٧] ، والله أعلم .

١- المحرر الوجيز (١٦٢٥) .
٢- المحرر الوجيز (١٦٢٥).
٣-بدائع الفوائد (٢ / ١٧٤ - ١٧٥).
٤- سورة ص (٥) .
٥- المحرر الوجيز (١٦٢٥).
٦- الشهاب الخفاجي (٨/ ٢٢٨)، تفسير الجلالين (٦/ ٤٥٤)، روح المعاني (٢٤/ ٣٤).
٧- روح المعاني (٢٤/ ٣٤).



٥- معرفة المتكلم

وكذا معرفة المتكلم من الطرق المعينة على معرفة سر اختلاف الألفاظ، من ذلك:

أ. ما أنزل إلينا، علينا

ورد في سورة البقرة قول الله تعالى (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ)[١]، بينما في سورة آل عمران (قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ)[٢] الآية. هل من حكمة في قول المولى جل وعلا في سورة البقرة (أُنزِلَ إِلَيْنَا) بينما في سورة آل عمران (أُنزِلَ عَلَيْنَا)؟

أولاً: لا بد وأن نفرق بين (أنزل على) و (أنزل إلى). أما (أنزل على) «فأصلها أن تستعمل فيما نزل الوحي عليه»[١]. لذا فهي ترد في سياق التشريف والإكرام، لأن (على) تدل «على مجيئه من علو»[٢] فتسبغه البركة من أعلاه إلى أسفله، وكما في حال التطهر بالاغتسال يفيض على رأسه ثم يجلل جسده فتعمه الطهارة. وكحال الفائز فإنه يقلد الميدالية الفضية أو البرونزية أو غيرها، وقد يقلد إكليل الزهور فإنها تنزل على رأسه إلى رقبته كما هو الحال في عادات الأمم الأخرى.

ثانياً: في سورة آل عمران وردت الآية (آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا) لأن القائل هنا هو

١- البقرة (١٣٦).
٢- آل عمران (٨٤).
٣- درة التنزيل (٣٥)، ونحوه في ملاك التأويل (١ / ٩٥ - ٩٦)، وفتح الرحمن (٤٠ - ٤١).
٤- المرجع السابق.

رسول الله ﷺ فهو الذي أنزل عليه القرآن، لذا وردت (قُلْ) أي يا رسول الله وليس (قولوا) فهو الذي شرف بالرسالة وأكرم بنزول القرآن عليه تشريفاً وتفضيلاً. « فلما كانت سورة آل عمران قد صدرت الآية بما هو خطاب للنبي ﷺ وهو قوله (قُلْ آمَنَّا) كانت (على) أحق بهذا المكان لأن الوحي أنزل عليه»[١].

ثم سورة آل عمران موضوعها «محمد رسول الله ﷺ»، فمن المناسب أن ترد الآية (عَلَيْنَا) لتأكيد موضوع السورة أن محمداً ﷺ هو الذي شرف بالرسالة وبنزول القرآن عليه. فالذي سيتكلم ويقول: (آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا) هو رسول الله ﷺ. « ولما كان الإنزال على الشيء مقصوداً به ذلك الشيء بالقصد الأول»[٢] ناسب اللفظ المذكور.

ثالثاً: بينما (أنزل إلى) ترد في سياق العمل بما نزل من أمر ونهي، أي نزل الكتاب وانتهى إلينا، وكتاب الملك إذا انتهى إلى الرعية فعليهم العمل « إذ تستعمل (إلى) للمنتهى، فإنه إذا بلغه يقال فيه: انتهي إليه... فاختيرت فيها (إلى) لأنها مصدرة بخطاب المسلمين... فالمؤمنون لم ينزل الوحي في الحقيقة عليهم من السماء، وإنما أنزل على الأنبياء ثم انتهى من عندهم إليهم، فلما كان (قُولُوا) خطاباً لغير الأنبياء وكان لأممهم كان اختيار (إِلَيْ) أولى من اختيار (على)»[٣] فالقائل في نهاية الأمر (آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا) في سورة البقرة هم المؤمنون، لذا وردت الآية (قُولُوا) أيها المؤمنون، فالذي سيتكلم وسيقول هذا اللفظ هم المؤمنون.

١- درة التنزيل (٣٥)، ونحوه في ملاك التأويل (١ / ٩٥ - ٩٦)، وفتح الرحمن (٤٠ - ٤١).
٢- نظم الدرر (٢ / ١٢٠).
٣- درة التنزيل (٣٥)، نظم الدرر (١ / ٢٥٤).

وقد ورد كلا الحرفين في حق النبي ﷺ في سورة النساء بالمعنيين المذكورين ، فلما كان القصد هو الانتهاء إليه للعمل به قال سبحانه (**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ** الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ)[١] . ولما وردت في سياق التشريف والتفضيل قال بعد الآية السابقة (وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ **عَلَيْكَ** وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ **عَلَيْكَ** الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ **عَلَيْكَ** عَظِيمًا)[٢] .

فالمقصود من قوله تعالى عن المؤمنين أنهم قالوا : (وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا) أي نؤمن بما أنزل إلينا من الأوامر والنواهي لنعمل بها حتى نصل إلى مرضاة الله تعالى ومحبته وتكتمل عبوديتنا له ، إذ وردت هذه الآية في سورة البقرة سورة العبودية والمحبة لله تعالى .

خامساً: « لما خص الخطاب في آل عمران بالنبي ﷺ ناسب الاستعلاء ، ولما عم هناك جميع المؤمنين ناسب الانتهاء »[٣] .

فاختلف اللفظ لاختلاف المتكلمين ، والله أعلم .

١- النساء (١٠٥) .

٢- النساء (١١٣) .

٣- الجمل نقلاً عن شيخه (١ / ٤٤٨) .

ب. ويذبحون، يذبحون

ورد في سورة البقرة (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ)[1] بينما في سورة إبراهيم (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ)[2] . فلماذا قيل في البقرة (يُذَبِّحُونَ) وفي إبراهيم (وَيُذَبِّحُونَ)؟

أولاً: الآيتان وردتا في ذكر ما كان يلاقيه بنو إسرائيل من الفراعنة ، فقد كان الفراعنة يؤذون ويعذبون بني إسرائيل عذاباً بالغاً ابتداءً من الإهانات المتوالية في الخدمة إلى الضرب الموجع إلى نزع ملكيتهم إلى شتى أنواع الظلم ثم الانتهاء إلى تعذيب الوالدين بتعذيب أبنائهم أمامهم وذبح الأبناء على مرأى منهم. فتفضل الله تعالى على بني إسرائيل ومنّ عليهم بأن نجاهم من جميع أنواع العذاب. فعندما ذكر الله تعالى مننه وفضائله على بني إسرائيل لم يذكر المنن والفضائل التي قد تراها العين صغيرة، فالسيد كامل السؤدد يغض الطرف عن العطايا والمنن الصغرى ولا يذكر إلا الكبرى لكمال سؤدده، فكان ما دون ذلك من العذاب في النظر الإلهي «لا يعتد به»[3] وإنما ذكر «أعظم أحوال سوء العذاب»[4] .

ثانياً: ثم حياءً لم يذكر المنن الصغرى ولم يشر إليها ولم يترك لها أثراً وذكراً إلا بقوله تعالى (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) فذكر ذلك في سورة البقرة لأن « المتكلم هو

١- البقرة (٤٩).
٢- إبراهيم (٦)
٣- الطاهر عاشور(١ / ٤٩٣).
٤- المرجع السابق.

الله تعالى فوقع تفسيراً لما قبله»[١] .

ثالثاً: أما في سورة إبراهيم « فالمتكلم هو موسى عليه السلام ليدل على تعدد النعم والأيادي على بني إسرائيل »[٢] ، إذ « كان مأموراً بتعداد المحن في قوله تعالى له (وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ)[٣] فعدد المحن عليهم فناسب ذكر العاطف»[٤] ، فذكرهم موسى عليه السلام بالمنن الصغرى والكبرى. ودائماً إذا أراد المحب أن يذكر أيادي المحبوب على غيره فإنه يعدد الصغيرة والكبيرة لشدة حبه له، ولبيان عظم فضائله وكثرة أياديه في حق الطرف الآخر. فعندما كلم موسى عليه السلام بني إسرائيل عدَّد كثيراً من أيادي الله تعالى عليهم في تخليصهم من عذاب الفراعنة، فما ترك صغيرة ولا كبيرة في إنقاذهم ونجاتهم منهم إلا وذكرها لهم .

رابعاً: فلما نقل الله تعالى لنا كلام موسى عليه السلام استحيا الله تعالى أن يذكر ما دون الذبح لكمال سؤدده وحيائه، فقصر الذكر على الذبح ولكنه بين أن موسى عليه السلام ذكر كلاماً وأموراً غير الذبح يستحيي الله من ذكرهما لكمال سؤدده، فتمت الإشارة إليها بذكر الواو فقال (وَيُذَبِّحُونَ) في معرض قوله (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ)[٥] « فدل على أنواع غير التذبيح والاستحياء (إبقاء النساء أحياء)، وعطف التذبيح والاستحياء عليها»[٦] . فالواو المذكورة تدل على أن هناك أموراً ذكرها موسى عليه السلام

١- الجمل (١ / ٧٥).
٢- تفسير ابن كثير، إبراهيم (٤٩).
٣- إبراهيم (٥).
٤- الجمل(١ / ٧٥)، الشهاب الخفاجي (٢ / ٢٥١)، فتح الرحمن (٢٤-٢٥).
٥- إبراهيم (٦).
٦- المحرر الوجيز (١٠٤٨).

إذ « سبق الذبح عذاب آخر »[١] . « فمسهم العذاب غير التذبيح »[٢] . أي « يعذبونكم بالتذبيح وبغير التذبيح »[٣] . فلما نقل الله تعالى كلام موسى عليه السلام حذفت. وهذه الواو التي تسمى واو الحذف تدل على ما وراءها.

هذه إشارات قرآنية تفهمها العرب وتعظمها لأنها تكني عن أمور أخرى لذا قال أحد بلغائهم وسيد من ساداتهم « إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته »، والله أعلم.

١- تفسير القرآن للسمعاني (٣/ ١٠٤).
٢- الفراء في معاني القرآن (٢/ ٦٩).
٣- ابن جرير (١٣ / ١٢٤)، الفراء في معاني القرآن (٢ / ٦٩)، الدر المصون (١ / ٣٤٦)، القرطبي (١ / ٣٨٤).

جـ. هو في بيتها، وامرأة العزيز

في سورة يوسف قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾(١) بينما قال سبحانه في موضع آخر ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾(٢) وهذا الموضع الأخير فيه إطالة في الكلام ، فهل من حكمة من هذه الإطالة ، بينما كان من الممكن أن يقال (وراودته امرأة العزيز) كما في الآية الأولى .

هذا الكلام ليس فيه إطالة ، بل فيه فوائد لا تتحقق فيما لو قيل (وراودته امرأة العزيز) :

أولاً: «المراودة أن تنازع غيرك فتريد منه غير ما يريد ، وتتلطف في طلبه تلطف المخادع وتحرص عليه»(٣) «برفق ولين»(٤) . «وهكذا فعلت امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام إذ خادعته عن نفسه وراوغته ليتحقق لها مرادها منه مخالفاً لإرادته وإرادة ربه»(٥) .

ثانياً: لأن الله تعالى ستير يحب الستر فلم يذكرها بلفظ (امرأة العزيز) « فالعدول عن اسمها للمحافظة على الستر »(٦) « وللإخفاء عن الآخرين لئلا يتهموها»(٧) . وإنما الذي ذكرها بهذا اللفظ هن النسوة- نساء علية القوم ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ

١- يوسف (٣٠).
٢- يوسف (٢٣).
٣- تفسير المراغي (١٢ / ١٢٨).
٤- القرطبي (٩ / ١٦٢).
٥- تفسير المراغي (١٢ / ١٢٩) بتصرف .
٦- الجمل (٤ / ٢٢)، فتح القدير (٣/ ١٦) .
٧- إعراب القرآن للدرويش (٤ / ٤٧٠).

امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ). لذا عندما أشار هزال إلى ماعز ليذهب إلى النبي ﷺ ليعترف له بالزنا، فاعترف للنبي ﷺ فأقام الحد على ماعز قال النبي ﷺ لهزال: «يا هزال لو سترته بثوبك كان خيراً لك»[١].

ثالثاً: يوسف عليه السلام كان في قصر العزيز ولم تسمح له امرأة العزيز بالخروج من القصر لشدة غيرتها على يوسف عليه السلام لئلا تراه امرأة أخرى ولئلا يرى هو امرأة غيرها لذا قال سبحانه (هُوَ فِي بَيْتِهَا) أي مستقراً في بيتها لم يخرج، فلو قال (راودته امرأة العزيز) لم يتحقق هذا المفهوم.

رابعاً: كان لامرأة العزيز الكلمة الأولى في البيت، وقرارها يجري على زوجها، فلا كلمة للعزيز أمام كلمتها، فكأنها هي سيدة البيت، فالبيت بيتها لا بيت العزيز (هُوَ فِي بَيْتِهَا)، فالعزيز خاتم في يد امرأته تديره كما تشاء. لذا عندما تبين للعزيز أن زوجته هي التي راودت يوسف عليه السلام أغلظ على يوسف عليه السلام وقال (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) بينما قال لزوجته (وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ)[٢]، ثم سجن بعدها يوسف عليه السلام خضوعاً لرأي زوجته، فلو قيل (وراودته امرأة العزيز) لم نحصل على هذه الفوائد.

خامساً: وربما أعرض عن وصفها (بامرأة العزيز) «استهجاناً»[٣].

سادساً: ثم «فيه زيادة تقرير بالمراودة لما فيه من فرط الاختلاط والإلفة»[٤] «إذ كونه

١- رواه أحمد (٥ / ٢١٧) والترمذي (٤٣٧٧، ٤٣٧٨)، وصححه الحاكم (٤ / ٣٦٣)، راجع الإرواء (٧ / ٣٥٨).
٢- يوسف (٢٩).
٣- الجمل (٤ / ٢٢)، فتح القدير (٣/ ١٦).
٤- إعراب القرآن للدرويش (٤ / ٤٧٣).

في بيتها مما يدعو إلى ذلك»[١] . إذ قوله سبحانه (هُوَ فِي بَيْتِهَا) «فيه إشارة إلى خلوتها به فهو أنسب في الدلالة على الداعي لها»[٢] لدعوتها له إلى الفاحشة . ففيه تنبيه وتحذير من انفراد الرجال بالنساء كما قال النبي ﷺ : « إياكم والدخول على النساء»[٣] ، وقوله ﷺ : « لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم »[٤] .

سابعاً: « فيه إشارة إلى أن يوسف عليه السلام تحت تدبيرها والمسكن واحد يتيسر فيه إيقاع الأمر المكروه من غير شعور أحد ولا إحساس بشر »[٥] .

ثامناً: « ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام ، فإن عدم ميله لها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت يدها ينادي بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفة »[٦] . إذ « الغرض المسوق له الكلام هو براءة يوسف عليه السلام، فلو قيل (راودته امرأة العزيز أو زليخا) لم يفد ما أفاده لفظ الآية »[٧] .

تاسعاً: أما قول النسوة (امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ) أردن أن يبالغن في ذمها وفي إشاعة الخبر « فأضفنها إلى زوجها إرادة لإشاعة الخبر ، لأن النفس إلى سماع أخبار أولي الأخطار -ذوي الأحساب- أميل . وعبرن بالفعل المضارع (تُرَاوِدُ) لأن الإصرار على المراودة صار لها كالسجية . و(فَتَاهَا) عبدها نازلة من افتراش العزيز إلى افتراشه ، (قَدْ شَغَفَهَا) قد دخل حبه جلدها حتى أصاب قلبها ، فذهب بها كل

١- روح المعاني (١٢ / ٢١١).
٢- الشهاب الخفاجي (٥ / ٢٨٦).
٣- رواه البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢).
٤- رواه البخاري (٥٢٣٣)، ومسلم (١٣٤١).
٥- السعدي (٥٢٧).
٦- روح المعاني (١٢ / ٢١١). ونحوه للدرويش في إعراب القرآن (٤ / ٤٧٠).
٧- إعراب القرآن للدرويش (٤ / ٤٧٢).

مذهب ذلك الفتى (حُبًّا) »[١] ، « فقلن ذلك ذماً لها وطعناً فيها »[٢] . « والاستنكار الذي تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر مما يبدو فيه استنكار الفعلة »[٣] ، فقلن ذلك في حقها لا لشناعة فعلها ولكن غيرة منها .

عاشراً: فيه إظهار مكر النسوة حيث أردن الإظهار أن «هذا أمر مستقبح . هي امرأة كبيرة القدر وزوجها كبير القدر ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها»[٤] .

الحادي عشر: « وكذا ذكرنها بالتعيين لأنهن أردن بذلك أن يبلغ قولهن إليها فيغريها بعرضها يوسف عليه السلام عليهن فيرين جماله لأنهن أحببن أن يرينه »[٥] .

فاختلف اللفظان لاختلاف المتكلم ، والله أعلم .

١- نظم الدرر (٤ / ٣٤ - بتصرف) .
٢- النكت والعيون للماوردي (٢ / ٢٦٣) .
٣- في ظلال القرآن (٤ / ١٩٥٥) .
٤- السعدي (٥٢٨) .
٥- الطاهر عاشور (١٢ / ٢٦٢)، غرائب القرآن (١٢ / ١٣٠) .

د. رجعت ورددت

ذكر الله تعالى في سورة الكهف قول الكافر (وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا)[١] بينما في سورة فصلت (وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ)[٢] . ما الحكمة من اختلاف اللفظ في الموضعين «رُدِدتُّ» و «رُجِعْتُ»؟

أولاً: سبق البيان أن (رجع) هو عود إلى الحال السابق (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)[٣] أي لعلهم إليَّ يعودون، (رَبِّ ارْجِعُونِ)[٤] أي اجعلوني أعود إلى حالي السابق في الدنيا . أو هو عود إلى حال مماثل أو مقارب . وقد يصاحب الرجوع سرورٌ وقد يصاحبه حزن وقد لا يصاحبه شيء من ذلك .

ثانياً: أما (الرد) فهو رجوع يصاحبه ما يُكره لأحد الأطراف . ففيه « من الكراهية للنفوس ما ليس في لفظ الرجوع»[٥] . ربما من أجل ذلك قال الله تعالى (وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا)[٦] ففي إجابة التحية بأفضل منها قال سبحانه (فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا) لم يقل (فردوا بأحسن منها) بينما في إجابة التحية بالمثل لم يقل سبحانه (فحيوا بمثلها) وإنما قال (رُدُّوهَا) لعل فيها إشارة إلى أن الإجابة بأحسن منها هو الذي يحبه الله تعالى، بينما الإجابة بالمثل هو مجرد أداء واجب، وقد تفضل عليه البادىء بالسلام بأن بدأه بينما المجيب مكافىء . والبادىء هو ذو اليد العليا وهو الذي كان

١- الكهف (٣٦) .
٢- فصلت (٥٠) .
٣- يوسف (٦٢) .
٤- المؤمنون (٩٩) .
٥- كشف المعاني (٢٤٦) .
٦- النساء (٨٦) .

سبباً في إجابة المجيب فكان متفضلاً عليه. ويكره للإنسان أن يكون للآخرين فضل عليه قال ﷺ: « اليد العليا خير من اليد السفلى »[١]. وقد أوجب النبي ﷺ أقل أحوال الإجابة أن يرد السلام بالمماثلة فقال: « خمس تجب للمسلم على أخيه: رد السلام.. »الحديث[٢]، وكذا في إعطاء الطريق حقه قال ﷺ: « رد السلام »[٣]، والله أعلم.

ثالثاً: آية فصلت (وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي) وردت في سياق وصف النفس البشرية عامة، ووصف أغلب أحوال الناس (لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ)[٤]، وأنه ينسى الله تعالى المنعم عليه والذي أنقذه من المصائب وتفضل عليه (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي)[٥] كما قال تعالى (كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ)[٦] (وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ)[٧] وكما قال سبحانه في هذه السورة بعد الآية السابقة (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ)[٨].

يشعر أغلب الناس مسلمهم وكافرهم أن الله تعالى لم يعطه في الدنيا إلا لكرامته عنده (فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)[٩]. وهذه الصفة المذكورة في آية فصلت « توجد في المؤمنين

١- رواه البخاري (١٤٢٧).
٢- رواه مسلم (٢١٦٢).
٣- رواه البخاري (٦٢٢٩).
٤- فصلت (٤٩).
٥- فصلت (٥٠).
٦- العلق (٦).
٧- يونس (١٢).
٨- فصلت (٥١).
٩- الفجر (١٥).

﴿لا يَسْأَمُ الإنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ وبها افتتح الآيات بالوصف المضروب به المثل في هذه الآية ثم قال بعدما ذكر من كلامه ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾»[١] .
لذا قال فيها ﴿هَذَا لِي﴾ أي أنا استحقه، ويعلم الله أني استحق ذلك، وهو يحبني وإلا لما أعطانيه ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فمنحنيه كرامة لي. وإذا كانت لي كرامة عنده في الدنيا فكذا لي كرامة عنده في الآخرة إن رجعت إليه وقامت الساعة. أما الكافر فيقول ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أبداً ، يقولها شاكاً بل مكذباً بها. أما المسلم فإنه لعظم اللهو الذي هو فيه وغفلته وغيابه في زينتة الدنيا فإنه يقول ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ الآن فهذا ليس أوان قيامها إذ لم تظهر أشراطها، فأمامي سنون كثيرة ألهو بها، أما التوبة فتؤجل إلى سن الشيخوخة وقبل الممات.

فهذه أحوال أغلب الناس عند إصابتهم بالسراء والضراء والخير والشر والنعم والمصائب، بل كثير من المسلمين ينتابهم هذا الشعور إلا فيما يتعلق بنفي قيام الساعة. وقد يتلفظ بعض المسلمين ألفاظ الكفر إذا اشتدت عليه المصائب بالرغم من إيمانه بالله واليوم الآخر، وإن كان الكافر أشد ضلالة وكفراً إذ كفره أصلي.

لذا قوله في آية ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ يظن أنه لو رجع إليه فإنه له الخير المدخر وله الحسنى عنده لما له من الكرامة التي ظهرت في الدنيا. فليس في رجوعه إليه نقصان للترف والنعمة الدنيوية التي يتقلب بها. بل إن كان في الآخرة خير كثير فإن له النصيب الأوفر لأنه أوفر حظاً في الدنيا فناسب قوله ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾. فلفظ (رجع) «لا يحتمل ولا يفهم منه معنى القهر والتعنيف»[٢] . «وليس فيه ما في لفظ

١- ملاك التأويل (٢/ ٦٤٦).
٢- المرجع السابق.

(رد) من كراهة»[1] .

رابعاً: أما المتكلم في سورة الكهف فهو رجل كافر متنعم مترف، يخشى مفارقة جنته طرفة عين (جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ)[2] لذا في كل المجالس يفاخر غيره « بما تقدم من وصف الجنتين اللتين حوتا مراده واشتملتا على ما أراده»[3] قائلاً (أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً)[4] ، وكلما دخل جنته ورآها غاب الفكر فيها قائلاً (مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا)[5] لشدة تعلقه بها وكراهية مفارقتها، وإذا فارقها فإنه لا يفارقها إلا بقوة خارقة قاهرة تكرهه على مفارقتها. إضافة إلى يقينه بوحدانية الله وقيام الساعة إلا أنه جحده وكره لقاء الله تعالى- الذي سيتحقق رغماً عنه- خشية المحاسبة، وأنه لما تلفظ بها (مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا) أراد إظهار الاستخفاف واحتقار المؤمن استهزاءً بدعوته ليكف عن تذكيره بما يكرهه كحال كبار قريش من الكفار الذين يوقنون بدعوة النبي ﷺ لكنهم جحدوا بها (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)[6] كحال آل فرعون. « فلما كان فيه أنه ينقل عن جنته وهو خلاف محبته كان استعمال اللفظ الذي يدل على الكراهة فيه أولى»[7] .

« فناسب آية الكهف قوله (وَلَئِن رُّدِدتُّ) لما يشعر لفظ (رُدِدتُّ) ويحتمله من القهر

١- درة التنزيل (٢٨٢).
٢- الكهف (٣٢).
٣- درة التنزيل (٢٨٢).
٤- الكهف (٣٤).
٥- الكهف (٣٥).
٦- النمل (١٤).
٧- درة التنزيل (٢٨٢)، كشف المعاني (٢٤٦-٢٤٧)، روح المعاني (١٥/ ٢٧٦).

والتعنيف»[١] «إذ الرد عن الشيء يتضمن كراهية للمردود »[٢]« ومن الكراهية للنفوس ما ليس في لفظ الرجوع»[٣] .

الخلاصة: «لما وصف صاحب الكهف جنته بغاية المراد بالجنان كانت مفارقته لها أشد على النفس من مفارقة صاحب حم السجدة لما كان فيه ، لأنه لم يبالغ في وصف ما كان فيه كما بالغ صاحب الكهف . فناسب ذلك لفظ الرد في الكهف ولفظ الرجوع في حم السجدة »[٤] .

فالمتكلم في آية فصلت المسلم والكافر ، بينما المتكلم في آية الكهف كافر . فلما اختلف المتكلم اختلف اللفظ ، والله أعلم .

١- ملاك التأويل (٢/ ٦٤٦).
٢- درة التنزيل (٢٨٢).
٣- كشف المعاني (٢٤٦).
٤- كشف المعاني (٢٤٦ - ٢٤٧).



٦- المناسبة المعنوية للسياق

إن كلام العظماء للرعية يتضمن الأصل الواضح البين ليفهمه جميع الناس، ويتضمن مُلَحاً من العلم يعرفه من تدبر كلامهم وقرأه بعناية وقلب حاضر. وكلام الله تعالى لا يضاهيه كلام، لذا فهو أولى بالعناية والتدبر وقراءته بقلب حاضر وعقل واع. ولمعرفة سر الاختلاف في الآيات المتشابهة ينبغي معرفة الموضوع الذي يدور حوله الكلام والمناسبة المعنوية للسياق، من ذلك:

أ. تحتهم وتحتها

في أغلب سور القرآن إذا ذكر الله تعالى الجنة أولاً ثم ذكر أهلها فإنه يقول سبحانه (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)[1] أي من تحت الجنة، بينما في سور قليلة يقول سبحانه (تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ)[2] أي من تحت أهل الجنة كما ورد في سورة الأعراف والكهف. فما الحكمة في هذا الاختلاف؟

أما قوله تعالى (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) أي تجري الأنهار على أرض الجنة كقول فرعون لقومه (أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي)[3]، وهذا هو الأصل إذا ذكرت الجنة.

أما ما ورد في سورة الكهف (تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ) ذلك أن الكفار لما رأوا في أنفسهم أنهم أهل شرف وجاه أنفوا من مجالسة الضعفاء والفقراء، فأرادوا أن

١- البقرة (٢٥).
٢- االكهف (٣١)، الأعراف (٤٣).
٣- الزخرف (٥١).

تستمر الطبقية في الإسلام فيكون لأهل الشرف والجاه مجلس وللفقراء والضعفاء مجلس آخر فتتفرق القلوب وتتقطع الأمة الواحدة، لذا قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : « كنا مع النبي ﷺ ستة نفر : أنا وابن مسعود وبلال ورجل من هذيل ورجلان. فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء، لا يجترئون علينا. فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) »[١][٢].

لذا قال تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)[٣] أي خالطهم بجسدك وروحك لا تفارقهم عيناك، فإياك أن تلتفت عنهم، ولا تقل أني قد خالطتهم بجسدي فلا مانع من أن تلتفت عيناي عنهم وأتوجه إلى الأغنياء (وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ)[٤]. بل كونوا أمة واحدة على قلب واحد في الدنيا، يجمعكم مجلس واحد ليجمعكم الله يوم القيامة في مجلس واحد عنده في الفردوس الأعلى، فقال سبحانه (مِن تَحْتِهِمُ) للدلالة على اجتماعهم في الجنة وتزاورهم على ضفاف الأنهار كما اجتمعوا وتزاوروا في الدنيا على ضعفهم وفقرهم وبالرغم من أن « ثيابهم وجبابهم تفوح منها رائحة العرق ولكنها تضم القلوب الزكية بذكر الله تعالى »[٥].

«وكذا أضيفت (تحت) إلى المؤمنين للتعريض بإغاضة المشركين لتتقرر بشارة المؤمنين أتم تقرير»[٦]. بينما (مِن تَحْتِهَا) لا تحقق الموضوع الذي سيقت فيه هذه الآيات.

١- الأنعام (٥٢).
٢- رواه مسلم.
٣- الكهف (٢٨).
٤- الكهف (٢٨).
٥- في ظلال القرآن (٤ / ٢٢٧٠).
٦- الطاهر عاشور (١٥ / ٣١١).

وكذا في سورة الأعراف لما بين الله تعالى أنه ينزع من صدور المؤمنين الغل قبل دخولهم الجنة « حتى تصفو قلوبهم ويود بعضهم بعضاً »[١] حينئذ «تمت لهم النعمة»[٢] . فتصبح قلوبهم على قلب رجل واحد يجمعهم الحب والمودة في مجلس واحد « فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلا التواد والتعاطف»[٣] . (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ)[٤] على ضفاف الأنهار فيرونها «تتدفق في جناتها وبساتينها فيزدادون حبوراً لا تشوبه شائبة كدر »[٥] ، بينما القلوب المتفرقة لن يجمعهم مجلس واحد .

ففي حال الكلام عن جمع القلوب يقول سبحانه (مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ) . لذا قال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم» .

فاختلف اللفظان لاختلاف سياق الكلام وما يدور حوله ، والله أعلم .

١- فتح القدير (٢ / ٢٠٦) .
٢- نظم الدرر (٣ / ٣٤) .
٣- الكشاف (٢ / ٦٢) .
٤- الأعراف (٤٣) .
٥- مختصر المنار لرشيد رضا (٣ / ٣٣) .

ب. الفرار والفداء

ورد في سورة عبس ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾[١] ، فذكر الأخ قبل الأم والأب وجعل الأبناء والزوجة آخر المذكورين أي في المرحلة الأخيرة، بينما في سورة المعارج ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾[٢] فقدم ذكر الأبناء ثم الزوجة ثم الأخوة أي عكس الترتيب في الآية الأولى، ولم يذكر فيها الوالدان الأم والأب ؟

أولاً: آية عبس تتكلم عن الهروب طلباً للنجاة، فالإنسان لحظة المصيبة والأهوال غير المتوقعة يصيبه الذهول فيهرب بلا شعور «لاشتغاله بنفسه»[٣]. فذكر الله تعالى القرابة على حسب شدة الالتصاق ترتيباً تصاعدياً « فلما كان السياق للفرار قدم أدناهم رتبة في الحب والقرب فأدناهم على سبيل الترقي »[٤]. فذكر الفرار من الأخ على الرغم مما بينهما من المحبة والتوافق والعصبية. ثم لبيان شدة الهول فإن الذهول لم يقتصر على الأخ و إنما تعدى إلى الفرار عن الوالدين، ثم لم يقتصر على الوالدين إذ الرجل قد يفارق والديه في السكن بعد زواجه ليلتصق بالزوجة والأبناء، بل تعداه الفرار عن الصاحبة ولم يقل الزوجة لأنه قد تستمر الحياة الزوجية مع شيء من التباغض وعدم الحب ، فذكر أشد أنواع الارتباط بين الزوجين وذلك إذا أصبحت الزوجة عشيقة، فهذا معنى (الصاحبة) لشدة مصاحبتها لزوجها، ولكن الرجل قد يتخلى عن زوجته ويطلقها لكنه لا يتخلى عن أبنائه الذين هم قطعة منه

١- عبس (٣٤).
٢- المعارج (١١).
٣- النكت والعيون للماوردي (٤ / ٤٠٤).
٤- نظم الدرر (٨ / ٣٣٣)، غرائب القرآن (٣٠ / ٣٠).

وفلْذَةُ كبده ، لكنه لشدة الأهوال يفر منهم . فأتى الترتيب تصاعدياً مناسباً لحال الفرار من المصيبة العظيمة . « كأنه قيل : يفر من أخيه بل من أبويه بل من صاحبته وبنيه »[1] . « وقيل : هذا الفرار هو خوف من أن يتبع بعضهم بعضاً بتبعات، إذ الملابسة تعلق المطالبة »[2] .

ثانياً: أما آية المعارج فتتكلم عن الفداء، وهو أن يفتدي الرجل نفسه من العذاب . إذ يغلب عليه « الرعب الذي يذهب بنفسه، فهي صورة للهفة الطاغية والفزع المذهل والرغبة الجامحة في الإفلات، صورة مبطنة بالهول مغمورة بالكرب موشاة بالفزع»[3] . ففي المرحلة الأولى لشدة الهول فإن الرجل يود لو يفدي نفسه بما يملك لا بما لا يملك، فالذي يملكه ولا ينفك عنه هم الأبناء، إذ الزوجة قد تطلق وقد تخلع نفسها بينما الأبناء هم في ملك أبيهم ، فيفدي نفسه بما يملك وهم الأبناء وله الجرأة عليهم بالافتداء بهم ولكن هذه الفدية لا تقبل .

حينئذ تعظم عنده الجرأة لما يراه من شدة الهول والفزع، فيتوجه الرجل إلى المرحلة الثانية الأضعف في الملكية وهي الزوجة إذ يملك بضعها وقد عقد عليها فيتجرأ عليها ليفتدي بها، فيظن أنه بإضافتها إلى الأبناء سيترجح جانب الفداء ويقبل، ولكنه لا يقبل منه .

حينئذ يزداد ذهوله ورعبه فيتوجه إلى المرحلة التي تليها وهي الرابطة الأبعد والتي أعلاها الوالدان، لكن الوالدين لعظم حقوقهما فإنهم يُفْدَون ولا يفتدى بهم ، فهم

١- روح المعاني (٣٠/ ٤٨).
٢- المحرر الوجيز (١٩٥٠).
٣- في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٩٧).

أجل من الافتداء بهم، بل هو من أقبح القبائح وهو الأمر الذي لا يتلفظ به ولا يخطر في ذهن الإنسان أن يفتدي بوالديه، فضرب الله صفحاً عن ذكرهم لبيان عظم قدرهما، وأنهم أجل من أن يفتدى بهم ولو بلغ الأمر ما بلغ، فعدل عن ذكرهم. ولكن الرجل لشدة الهول تجرأ على الإخوة وهم في المرحلة الثالثة الأضعف في الملكية وطلب الافتداء بهم فقال (وَأَخِيهِ) ليضيفهم إلى الأبناء والزوجة في الفداء ولكن لا ينفعه هذا الفداء.

ثم أغلق على عقله وقد بلغ مرحلة السكر فتجرأ إلى الأبعد لشدة الهول وهم القبيلة فقال (وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ).

فالفداء أولاً يكون بالألصق وأقلهم حاجزاً بينه وبينهم، فلا بد وأن يكون الترتيب في الفداء تنازلياً من الألصق إلى الأبعد جرأةً لبيان شدة الهول وأن الناس في حالة سكر (وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)[1]. بينما الترتيب في الفرار يكون أولاً من الأبعد إلى الألصق لبيان شدة الهول أن وصل به الفرار من ألصق الناس به.

فاختلف اللفظان لاختلاف سياق الكلام وما يدور حوله، والله أعلم.

١- الحج (٢).

جـ. العباد والعبيد

قد يقف القارىء حائراً عند لفظ (العباد) في بعض الآيات لورودها في آيات أخرى بلفظ (العبيد) . والمعنى واحد فلماذا هذا التنويع؟ بين اللفظين فرق دقيق في المعنى، ويمكن معرفة هذا الفرق بقراءة سياق الآيات الواردة في كل منهما ومناسبتها .

أولاً : « العبيد » هذا اللفظ يرد في سياق «التحقير»[١] إذ ورد في القرآن في حق المعذبين والكفار والفجار . قال الله تعالى مخاطباً الكفار (**قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**)[٢] «وهم في هذا الموقف الذليل ضعفاء لا ناصر لهم، مجردون من كل حول وقوة، فكان لفظ العبيد هو الذي يجسد وحده ذلتهم وضعفهم وعجزهم عن فك رقابهم من عذاب الله وفي نفس الوقت يجسد عدل الله تعالى الذي لا يتناهى حين ينصفهم مع شدة غضبه عليهم ولا يقابل ظلمهم بظلم مثله»[٣] . ولذا قد يجيء الذنب والعذاب ملازماً للفظ العبيد (**وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**)[٤] ، وقال سبحانه لليهود لما ذكر قتلهم الأنبياء وقولهم الشنيع (**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**)[٥] . فلفظ العبيد « إعلام بضعف وعدم قدرة على انتصار »[٦] ، «لذا لا يأتي

١- المحرر الوجيز لابن عطية، الإعجاز البياني د. الخضري (١٧٥) .
٢- سورة ق (٢٨) .
٣- الإعجاز البياني (١٧٨ - ١٧٩) د. محمد الأمين الخضري .
٤- فصلت (٤٦) .
٥- آل عمران (١٨١) .
٦- نظم الدرر (٦/ ٥٨٣-٥٨٤) .

لفظ العبيد إلا مع نفي الظلم عن الله تعالى لبيان أنه لا يعاقب أحداً إلا بذنب، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول له»[1]، فيأتي مقارناً للعقوبة.

ثانياً: أما « العباد » فيرد هذا اللفظ فيمن له عظمة ومكانة وقدر، فيرد « في مضمار الترفيع . . . دون أن يقترن به معنى التحقير وتصغير الشأن »[2]، فإن كانت هذه العظمة دينية ذكره الله تعالى بقوله « عِبَادِنَا ». قال الله تعالى في حق كل نبي مذكور في سورة الصافات (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)[3]، (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ)[4]. وكذا وردت فيمن كان على أصله وفطرته (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ)[5] أي لما كانوا على فطرتهم حنفاء على التوحيد أنتم أضللتموهم ؟!

وإن كانت العظمة دنيوية قال سبحانه: (عِبَادًا لَّنَا)[6]. قال سبحانه فيمن ملك بلاد فارس والشام وهو بختنصر المجوسي (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ)[7] فقوله سبحانه فيهم (عِبَادًا لَّنَا) « أي لا يدان لكم بهم»[8].

ثالثاً: لماذا « العباد » لأصحاب المكانة بينما « العبيد » للوضيع والمعذب؟ ذلك لأن

١- ابن كثير (فصلت : ٤٦).
٢- ابن عطية المحرر الوجيز، الإعجاز البياني د. الخضري (١٧٤).
٣- الصافات (٨١).
٤- سورة ص (٤٥).
٥- الفرقان (١٧).
٦- الإسراء (٥).
٧- الإسراء (٥).
٨- نظم الدرر (٤ / ٣٣٦).

طريقة لفظ الكلمة تناسب معناها، فلوصف من كانت له مكانة رفيعة عالية جاء اللفظ «عِبَادًا» فيه حرف الألف للدلالة على «الرفعة وانتصاب القامة»[1] والعلو. بينما صاحب السفول والحقير والوضيع لأنه في الدركات السفلى جاء لفظ « **عبيد** » فيه حرف الياء الذي يجره إلى الأسفل، فناسبت الألفاظ معانيها.

ففي سياق الرفعة وردت (عِبَاد) وفي سياق الوضاعة والسفول وردت (**عبيد**)، فاختلف اللفظ للمناسبة المعنوية للسياق، والله أعلم.

١- الإعجاز البياني (١٧٤) د. محمد الخضري.

د. العزيز الحكيم والغفور الرحيم

١ . ورد في سورة الممتحنة قول إبراهيم ﷺ (رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[١] . ومن المتوقع أن تكون (إنك أنت الغفور الرحيم). فلماذا وردت (الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) بدلاً من الغفور الرحيم؟

أولاً: سياق الآيات وارد في عدم موالاة الكفار وعدم مودتهم لقول الله تعالى في أول السورة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ)[٢] فلا تتعززوا بموالاتهم لذا وجب علينا البراءة منهم، وإنما نتعزز بموالاتنا لله تعالى ولو تخلينا عن العالم أجمع من حيث الموالاة والمودة. لذا ذكر الله تعالى قصة إبراهيم ﷺ وقوله (إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)[٣] ، لذا التجأ إبراهيم ﷺ إلى الله وحده وتوكل عليه وحده فتعزز به لا بغيره فأعزه الله تعالى عليهم (رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[٤] . «وكذا المؤمنون إذا تبرأوا من الكفار لوجه الله تعالى أعزهم وهكذا كان. إذ لما تشدد المؤمنون في عداوة آبائهم وجميع أقربائهم من المشركين ومقاطعتهم فلما رأى الله عز وجل منهم الجد والصبر على الوجد الشديد وطول التمني للسبب الذي يبيح لهم الموالاة والمواصلة رَحمَهم، فوعدهم بتيسير ما تمنوه ، فلما يسر فتح مكة ظفرهم الله بأمنيتهم فأسلم قومهم»[٥] .

١- الممتحنة (٥).
٢- الممتحنة (١).
٣- المممتحنة (٤).
٤- الممتحنة (٤-٥).
٥- الكشاف (٤ / ٨٨).

ثانياً: طلب المغفرة بقولهم (وَاغْفِرْ لَنَا) مرتبطة بالموالاة والمعاداة في الله تعالى. إذ قد تضعف النفس فتود الكفار أو تواليهم بسبب تسلط الذنوب على القلب. فطلب المغفرة لتتم الموالاة والمودة في الله تعالى والمعاداة والبراءة في الله على أكمل وجه.

وكذا قد يتبرأ المسلم من موالاة الكفار ومودتهم ولكن يتسلطون عليه بسبب ذنوبه «ولما كان المؤمنون يعلمون أن ما يصيبهم من مصيبة إنما هي مما كسبت أيديهم سألوا المغفرة من مجترحاتهم»[١].

لذا وردت الآية بقولهم (إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) للبيان أن «مقصدهم إنما هو أن يندفع عنهم ظهور الكفار»[٢] بل وينصرهم عليهم. فكأن قولهم (وَاغْفِرْ لَنَا) يتضمن «فانصرنا على أعدائنا»[٣].

فكان طلب المغفرة تبعاً للتعزز بالله تعالى فقال (إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، فناسب دعاءهم ذكر العزة والحكمة.

ثالثاً: «إنك أنت العزيز الحكيم مبنى على قولهم (رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا) فإن المراد لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق فيكون سبب فتنتهم، فلا تفعل ذلك بنا فأنت القادر على كفهم ونصرنا عليهم فإنك أنت العزيز الذي لا معارض لما تريده ولا مانع لما تشاؤه»[٤].

رابعاً: ينبغي التفريق بين المودة والمحبة، فتجوز محبة الكفار كما أحب النبي ﷺ أمه

١- ملاك التأويل (١ / ٢٧٨).
٢- المحرر الوجيز (١٨٤٨).
٣- السعدي (١١٩٢).
٤- ملاك التأويل (١ / ٢٧٨).

فزار قبرها وأحب عمه أبا طالب، ولكن لا تجوز مودة الكفار. فالمحبة درجات، والمودة من مراتبها العالية، والمودة هي المحبة الخالصة وهذه لا تجوز لغير المسلم بينما يجوز ما دونها قال الله تعالى (**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**)[١] فمنع المودة لغير المسلم بينما لم يرد ما يحرم محبتهم ما دون المودة.

٢ . **وكذا ورد في سورة التوبة** اسمان لله تعالى كأنهما لا يتناسبان مع موضوع الآية، وهي في قوله تعالى (**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)[٢] . إذ من المتوقع أن تنتهي الآية (إن الله غفور رحيم) بعد قوله تعالى (**أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ**) فهل من مناسبة؟

أولاً: ينبغي أن ينظر إلى سياق الكلام والموضوع الذي تدور حوله الآية. بين الله تعالى في الآيات التي قبلها براءته من المنافقين والكفار ثم ذكر بعدها في هذه الآية ولاية المؤمنين لبعضهم وأنهم يد واحدة، وذكر طاعتهم لله تعالى وعبادتهم له. ولكونهم يداً واحدة فهم يمثلون قوة أمام أعدائهم، ولئلا يتطرق إلى ذهن المؤمن أن الله تعالى يتعزز بهذه القوة ولئلا يظن أن الله تعالى محتاج إلى معين وإلى قوتهم لذا بين الله تعالى أنه هو العزيز بذاته، ولحكمة ما اختارهم ليكونوا عباداً له، ولحكمته ألف بينهم وجعلهم يداً واحدة (**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ**)[٣] .

١- المجادلة (٢٢).
٢- التوبة (٧١).
٣- الإسراء (١١١).

ثانياً: هذه الولاية بين المؤمنين « فقيرة إلى الإعانة الإلهية ، فـ(اللَّهُ) الذي له الإحاطة الكاملة والـ(عَزِيز) الغالب الذي لا يغلب بوجه ، فهو قادر على نصر من يوالي حزبه وأن ينيله من ثمرات الرحمة ما يريد من غير أن يقدر أحد على أن يحول بينه وبين شيء من ذلك ، (حَكِيمٌ) لا يقدر أحد على نقض ما يحكمه وحل ما يبرمه ، وفي ذلك إشارة إلى أن المؤمنين لا يزالون منصورين على كل مفسد ما داموا عل هذه الخلال من الموالاة وما معها من حميد الخصال »[١] . قال النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون »[٢] . وقال ﷺ : «لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك »[٣] .

ثالثاً: « إن تلك الصفات لهي التي وعد الله المؤمنين عليها بالنصر والتمكين في الأرض ليحققوها في وصايتهم الرشيدة على البشرية . . . فالله قادر على إعزاز الفئة المؤمنة ليكون بعضها أولياء بعض في النهوض بهذه التكاليف ، حكيم في تقدير النصر والعزة لها لتصلح في الأرض وتحرس كلمة الله بين العباد »[٤] ، والله أعلم .

١- نظم الدرر (٣/ ٣٥٩) بتصرف .
٢- رواه البخاري (٣٦٤٠) .
٣- رواه البخاري (٣٦٤١) .
٤-في ظلال القرآن (٣/ ١٦٧٦) .

هـ. موقف عيسى عليه السلام يوم القيامة

استوقفتني آية والتي ذكر الله تعالى فيها المغفرة فتوقعت أن تنتهي بـ (الغفور الرحيم) ولكنها انتهت بـ (الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) وهي قول عيسى عليه السلام لله تعالى عن المؤمنين (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[١] فما الحكمة؟

أولاً: هذا الكلام من عيسى عليه السلام يصدر يوم القيامة إذ قال الله تعالى له: (أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ)[٢] ثم قال (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[٣].

ثانياً: « قوله (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ) هذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى في مثل هذا المقام. فشأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك. فإن عذبتهم - مع كونهم عبيدك - فلولا أنهم عبيد سوء من أنجس العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم له لم تعذبهم، لأن قربة العبودية تستدعى إحسان السيد إلى عبده ورحمته، فلماذا يعذب أرحم الراحمين وأجود الأجودين وأعظم المحسنين إحساناً عبيده؟ لولا فرط عتوهم وإبائهم عن طاعته وكمال استحقاقهم للعذاب.

فـ (إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ)[٤] فهم عبادك، وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم. فإن

١- المائدة (١١٨).

٢- المائدة (١١٦).

٣- المائدة (١١٧-١١٨).

٤- المائدة (١١٦).

عذبتهم عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه، فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه. فليس في هذا استعطاف لهم كما يظنه الجهال، ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله وكمال علمه بحالهم واستحقاقهم للعذاب»[1].

ثالثاً: «ثم قال عيسى عليه السلام: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ولم يقل (الغفور الرحيم) وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم والأمر بهم إلى النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة، بل مقام براءة منهم. فلو قال (فإنك أنت الغفور الرحيم) لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم. فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم. فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم، ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم. وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه، والكمال هو مغفرة القادر العالم وهو العزيز الحكيم. وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب»[2]، « فقاله عيسى عليه السلام على وجه التسليم لأمر الله والانقياد له »[3].

فتلخص مما سبق « أن وصفه سبحانه بالعزة والملكية والحكمة فإنما يراد به حيث يراد معنى الاقتدار . . . وإحاطة العلم وإفراده سبحانه بالخلق والأمر والربوبية والتعالي

١- مدارج السالكين (٢ / ٣٧٨ - ٣٧٩)، تفسير السعدي (٣٠٨).
٢- مدارج السالكين (٢ / ٣٧٩).
٣- فتح القدير (٢ / ٩٥).

وما يرجع إلى هذا»[١] . « فالآية مبنية على التسليم لله سبحانه وأنه المالك للكل، يفعل فيهم ما يشاء. . . وإنما قيل ذلك على لسان عيسى عليه السلام تبرياً وتسليماً لله سبحانه وليس موضع طلب مغفرة لهم. . . إذ ليس الكلام وارداً مورد الاستلطاف»[٢] ، « وإنما هو تنصل من حالهم وتسليم لله فيهم »[٣] . قال الغزنوي : «لأن في ذكر العفو تعريضاً للسائل »[٤] .

رابعاً: « ثم أنت (الْعَزِيزُ) فلا أحد يعترض عليك ولا ينسبك إلى وهن. (الْحَكِيمُ) فلا تفعل شيئاً إلا في أعلى درج الإحكام، ولا قدرة لأحد على تعقيبه ولا الاعتراض على شيء منه »[٥] ، والله أعلم.

١- ملاك التأويل (١ / ٢٧٦ - ٢٨٠).
٢- ملاك التأويل(١ / ٢٧٩) .
٣- ملاك التأويل (١ / ٢٧٨).
٤- ملاك التأويل (١ / ٢٧٨).
٥- نظم الدرر (٢ / ٥٧٦).

و. أذلة على المؤمنين

قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)[١]. فالعلو يناسب العزة، ولكن أين مناسبة العلو للذل إذ قال تعالى: (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) ولم يقل (أذلة للمؤمنين)؟

أولاً: حرف (عَلَى) يفيد العلو بينما حرف اللام يفيد الاختصاص.

ثانياً: وردت هذه الآية في سياق المدح والثناء وبيان علو المقام والقدر عند الله تعالى. إذ رباط الأخوة في الله تعالى من أوثق الروابط، بل لا انفصال له في الدنيا ولا في الآخرة كما قال تعالى: (الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ)[٢]. لذا حث النبي ﷺ على توثيقها فقال: «ما تحاب اثنان في الله تعالى إلا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه»[٣].

لذا كلما بذل الأخ لأخيه في الله ازداد قرباً من الله تعالى سواء كان البذل من ماله أو نفسه لقول الله تعالى في الحديث القدسي: «حقت محبتي على المتباذلين فيّ»[٤]. فمن سبق أخاه فتنازل له وبذل نفسه ليتصافى معه ويزيل ما حال بينهما من كدر كان أرفع وأفضل عند الله تعالى، بل هو أولى بالله من أخيه لقول النبي ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[٥]. فلئلا يشعر أنه لما ذلل نفسه لأخيه أصبح في مرتبة أدنى قال

١- المائدة (٥٤).
٢- الزخرف (٦٧).
٣- رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٤)، وصححه ابن حبان (٥٦٦)، والألباني.
٤- رواه أحمد (٥/ ٣٢٨) و (٤/ ٣٨٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع.
٥- رواه البخاري (٦٠٧٧، ٦٢٣٧).

تعالى: (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) فهو أرفع منه لأنه تواضع لله تعالى فرفعه الله عز وجل على أخيه. وقد قال النبي ﷺ: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[١].

لذا في حال تَذَلُّله لأخيه يصبح في مرتبة أعلى منه لأنه بذل نفسه لله تعالى فرفعه، إذ «ساعة يكون في ذلة لأخيه المؤمن فهذا يرفع من قدره»[٢]. «فقد شرفتهم فضيلة التواضع وغلبوا غيرهم من المؤمنين في التواضع»[٣] «حتى علوهم بهذه الصفة»[٤] فقال سبحانه في حقهم (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)، ولما سئل النبي ﷺ: يا رسول الله! الرجلان يلتقيان، أيهما يبدأ بالسلام؟ قال ﷺ: «أولاهما بالله»[٥].

وكذا «لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عدّاه بأداة (عَلَى) تضميناً لمعاني هذه الأفعال، فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل... قال الله تعالى في الآية الأخرى: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)»[٦][٧].

الخلاصة: «لما كان هذا الذل صادراً عن الرفق ولين الجانب لا الهوان، كان في الحقيقة عزاً، فأشار إليه بحرف الاستعلاء مضمناً له معنى الشفقة فقال: (عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) مبيناً أن تواضعهم عن علو منصب وشرف»[٨]، والله أعلم.

١- رواه مسلم (٢٥٨٨).
٢- تفسير الشعراوي (٥/ ٣٢١٤).
٣- الشهاب الخفاجي (٣/ ٤٩٧).
٤- روح المعاني (٦/ ١٦٣).
٥- رواه الترمذي (٢٦٩٤) وحسنه، وصححه الألباني.
٦- الفتح (٢٩).
٧- بدائع التفسير لابن القيم (٢/ ١١٣-١١٦)، البيضاوي (٣/ ٤٩٦-٤٩٧)، الجلالين (٢/ ٢٤٠)، الجمل (٢/ ٢٤٠).
٨- نظم الدرر للبقاعي (٢/ ٤٨٢-٤٨٣).



٧- قراءة ما سبقها من الآيات

قد تتشابه بعض الآيات ثم تختلف في ترتيب بعض كلماتها ، أو بزيادة كلمة أو حرف ، مما يجعل القارئ يتوقف عندها متسائلاً عن الحكمة ، ولكنه لو قرأ ما سبقها من الآيات لعلم أن ترتيب كلماتها أو زيادة حرف فيها يناسب ما سبقها . من ذلك :

أ. تبادل النفع والضر

١ . ورد في سورة الأعراف ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[١] وفي سور كثيرة يقدم الضر على النفع ، فما الحكمة؟ يمكن معرفة الحكمة بقراءة الآيات السابقة لها ، فلو قرأت الآيات التي قبلها لرأيتها رتبت ذكر النفع قبل الضر .

إذ قال الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٢] فقدم ذكر الهداية على الضلال ، فالهداية نفع بينما الضلال ضر ، ثم بعد آية الهداية قال تعالى : ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[٣] فأتت آية كاملة عن الضلال بعد آية الهداية ، ثم جاءت الآية المذكورة ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا ﴾ فكانت متناسبة مع الآيات التي قبلها وعلى نسق واحد في تقديم النفع على الضر والخير على الشر والهداية على الضلال . ملخص الإجابة أنه « تقدم ذكر النفع على الضر ذلك لأنه تقدمه لفظ تضمن نفعاً . . . فقدم هنا النفع لموافقة قوله قبله ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ ، وقوله بعده ﴿لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ إذ الهداية والخير من جنس النفع »[٤] .

١- الأعراف (١٨٨) .
٢- الأعراف (١٧٨) .
٣- الأعراف (١٨٦) .
٤- فتح الرحمن (٢١٣ - ٢١٤) .

بينما في سورة يونس قال الله تعالى (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ)[١] «قدم الضر على النفع موافقة لما سبقها»[٢] من الآيات القريبة حيث قدم ذكر الكفار ومصيرهم الأليم على ذكر المؤمنين (إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)[٣].

وكذا قدم فيها ذكر إصابة الإنسان بالضر على كشفه عنه (وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ)[٤]. فناسب بعدها تقديم الضر على النفع.

وكذا في قوله تعالى (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا)[٥] فقدم ذكر الضر على النفع « لما تقدم قبله من قوله (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) فطلبوا هذا العذاب استهانة وتكذيباً ولم يعلموا ما في مطلبهم من المحنة والمضرة العاجلة»[٦]. فكانت الإجابة عن سؤال الكفار: « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ قل: لا أملك لنفسي ما وعدكم الله من العذاب، ولا أن أدفع عنكم سوء العقاب، كما لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله أن يملكنيه منهما»[٧]. «فهي واردة فيما كان يستعجله الكفار من عذاب الله تعالى، وقبلها (وَإِمَّا

١- يونس (١٨).
٢- فتح الرحمن (٢١٣-٢١٤).
٣- يونس (٧-٩).
٤- يونس (١٢).
٥- يونس(٤٨-٤٩).
٦- ملاك التأويل (١ / ٤٥١).
٧- درة التنزيل (١٨١).

نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ)[١] أي إن أريناك بعض ما نتوعد به هؤلاء الكفار من العذاب في عاجل الدنيا حتى تراه نازلاً بهم في حياتك، أو أخرنا ذلك عنهم إلى بعد وفاتك ووفاتهم»[٢] «فقدم الضر لأجل ما تقدم من طلبهم إياه»[٣].

وفي سورة المائدة لما ذكر الله تعالى مسارعة النصارى إلى الكفر بعبادتهم عيسى عليه السلام (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)[٤] وتثليثهم (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ)[٥] بعد أخذ الميثاق عليهم قدم ذكر الضر على النفع إذ الكفر أعظم الضر في حق صاحبه (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)[٦]. فكانت متناسقة مع ما سبقها من الآيات.

وفي آخر سورة الفرقان لما ذكر الله تعالى آلاءه العظيمة ونعمه السابغة التي بدأت بقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا)[٧] إلى قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا)[٨] « فكان فيها تعداد لنعمه سبحانه، وكان الحامل للإنسان على الإذعان رجاء الإحسان في السر والإعلان»[٩] قدم ذكر النفع على الضر في الآيات التي تليها (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا

١- يونس (٤٦).
٢- درة التنزيل (١٨١).
٣- ملاك التأويل (١ / ٤٥١).
٤-المائدة (٧٢).
٥- المائدة (٧٣).
٦- المائدة (٧٦).
٧- الفرقان (٤٥).
٨- الفرقان (٥٤).
٩- نظم الدرر (٥ / ٣٢٩).

لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ)[١] فناسبت ما سبقها. « فإنه تَبِع لما قدم فيه الأفضل على الأنقص لقوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ)[٢] الآية وقوله بعده (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا)[٣] ثم جاء بعدها (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ) فقدم النفع على الضر اتباعاً لما تقدم»[٤].

بينما في أول السورة قدم ذكر الضر على النفع لما ذكر بعده من تقديم الموت الذي يعتبره الناس أعظم المصائب في الحياة، تلك الحياة التي في أعين الناس غاية الغايات فقال تعالى (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا)[٥] « قال مبتدئاً بالموت الذي هو من باب الضر على نسق ما قبله »[٦] ، والله أعلم.

١- الفرقان (٥٥).
٢- الفرقان (٥٣).
٣- الفرقان (٥٤).
٤- درة التنزيل (٣٢٨).
٥- الفرقان (٣).
٦- نظم الدرر (٥/ ٢٩٥).

ب. مواخر فيه، فيه مواخر

ورد في سورة النحل قوله تعالى (وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ)[١] بينما في سورة فاطر (وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ)[٢]. لماذا؟

أولاً: « المخر في اللغة الصوت الذي يكون من هبوب الريح على شيء يُشَق أو يكون من السفينة ونحوها »[٣] في الماء. « فهو الصوت الذي يحدث من جري السفينة بالريح »[٤].

ثانياً: إجابة على السؤال المذكور يمكن معرفة ذلك بمعرفة ما سبقها من الآيات. ففي سورة النحل قال سبحانه (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا)[٥] فذكر الجار والمجرور (مِنْهُ) بعد (لِتَأْكُلُوا) فأخر الجار والمجرور فقال (لِتَأْكُلُوا مِنْهُ)، ثم قال سبحانه (وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً)[٦] فذكر مرة أخرى الجار والمجرور (مِنْهُ) بعد تستخرجوا فأخر الجار والمجرور (وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ)، فناسب بعدها أن يؤخر الجار والمجرور (فِيهِ) بعد مواخر فقال سبحانه (وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ)[٧] « للتناسب والتشاكل مع ما قبلها»[٨].

أما في سورة فاطر بالعكس إذ قدم الجار والمجرور (مِن) على الأكل واستخراج الحلية

١- النحل (١٤).
٢- فاطر (١٢).
٣- المحرر الوجيز (١٠٨٧).
٤- المحرر الوجيز (١٥٤٨).
٥- النحل (١٤).
٦- النحل (١٤).
٧- النحل (١٤).
٨- ملاك التأويل (٢ / ٥٩٦-٥٩٧).

فقال سبحانه : (وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)[١] فناسب أن يقدم الجار والمجرور (فِيهِ) على (مَوَاخِرَ) فقال سبحانه (وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ)[٢] .

ثالثاً: ثم سبب آخر وهو أن سورة النحل موضوعها الشكر والصبر « فآية النحل مبنية على قصد الاعتبار وتعداد النعم»[٣] . فوردت الآيات في مقام الشكر عليها والتي منها الأكل واستخراج الحلية ومخر السفن. فقدم ذكر هذه المنائح الإلهية على المصدر والجهة التي تؤخذ منها هذه المنائح والهبات فقال (لِتَأْكُلُوا مِنْهُ)، (وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ)، (مَوَاخِرَ فِيهِ) « فآية النحل سيقت لتعداد النعم كما يؤذن بذلك سوابقها ولواحقها»[٤] . «فلما كان النظر إلى تعداد النعم هنا أتم منه في سورة فاطر قدم المخر »[٥] .

رابعاً: بينما سورة فاطر بيان لرسالة الرحمة وهي وحدة الخالق والمعبود والمرسل للرسالات على تنوعها « فهي مبنية على إبداء القدرة وجليل الحكمة . ألا ترى قوله تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ)[٦] ثم قال سبحانه : (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)[٧] فهذا مقصود الاعتبار والتعريف بانفراده سبحانه بخلق ذلك كله والقدرة عليه وإحكام الصنعة »[٨] .

١- فاطر (١٢).
٢- فاطر (١٢).
٣- ملاك التأويل (٢/ ٥٩٦ - ٥٩٧).
٤- روح المعاني (٢٢/ ١٨١).
٥- نظم الدرر (٤/ ٢٥٤).
٦- فاطر (١١).
٧- فاطر (١٢).
٨- ملاك التأويل (٢/ ٥٩٨).

وكذا رحمته في تنويع الخلق على تضاد صوره ولكنه يؤدي ويحقق هدفاً واحداً وهو توحيد المعبود. فلما ذكر الله تعالى أنواع المياه والبحار المالحة والعذبة (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)[١] بيّن أنها مصادر مختلفة ولكن لها منافع متشابهة إذ « فيه التنبيه على الحكمة الربانية في المخلوقات وهي ناموس تمايزها بخصائص مختلفة واتحاد أنواعها في خصائص متماثلة استدلالاً على دقيق صنع الله تعالى . . . فخلق البحرين العذب والأجاج على صورة واحدة وخالف بين أغراضها واتحدا في إخراج الحيتان والحلية »[٢] . فقال سبحانه مقدماً ذكر المصادر (وَمِن كُلٍّ) أي من كل المصادر المتنوعة تخرج نعم متشابهة حيث قال (وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً) ثم بين سبحانه بالرغم من اختلافها إلا أن السفن تمخر فيها جميعاً (وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ) فعلى اختلاف المصادر إلا أنها تتشابه في منافعها « فتقديم الظرف في قوله (فِيهِ مَوَاخِرَ) لأنها مسوقة مساق الاستدلال على دقيق صنع الله تعالى في المخلوقات »[٣] .

« فالبحران يختلفان في الماء فإن أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج . . . ثم إنهما بعد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة . فإن اللحم الطري يوجد فيهما ، والحلية تؤخذ منهما ، ومن يوجد في المتشابهين اختلافاً وفي المختلفين اشتباهاً لا يكون إلا قادراً مختاراً »[٤] . «فالمراد من الآية الاستدلال بالبحرين وما فيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته »[٥] . فقدم ذكر المصدرين (مِن كُلٍّ) (فِيهِ) على

١- فاطر (١٢).
٢- الطاهر عاشور (٢٢ / ٢٧٩ - ٢٨٠).
٣- عاشور (٢٢ / ٢٨٠).
٤- التفسير الكبير للرازي (٢٦ / ١٠).
٥- تفسير الرازي (٢٦ / ١١).

منافعهما المتشابهة (تَأْكُلُونَ ، تَسْتَخْرِجُونَ، مَوَاخِرَ) .

خامساً: « وكذا ضرب البحرين العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر »[(١)] . حيث يخرج من كليهما عبد مؤمن، فلطراوة قلب المؤمن وزينته وجماله ونوره (وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) . فلا يلزم من الكافر أن لا يخرج منه إلا كافر، فهما أي الكافر والمؤمن مصدران لولادة العبد المؤمن بالله تعالى . فلما كان المقصود ذكر اختلاف المصادر ناسب تقديم ذكر المصادر فقال (مِنْهُ) (فِيهِ) أي من البحر وفي البحر، وناسب تأخير ذكر فوائدها فذكر المنافع (تَأْكُلُونَ ، تَسْتَخْرِجُونَ، مَوَاخِرَ) بعد المصادر .

سادساً: وكذا ذكر الله تعالى « فضل البحر الأجاج على الكافر، فإن البحر الأجاج قد شارك البحر العذب في منافع من السمك واللؤلؤ وجرى الفلك بما ينفع الناس ، والكافر خلو من النفع »[(٢)] في نفسه، والكافر والبحر الأجاج كلاهما مصادر، والله أعلم .

١- الكشاف (٣/ ٢٧١)، فتح القدير (٤ / ٣٤٣) .
٢- إعراب القرآن للدرويش (٨/ ١٤٠) .



جـ. قوامين بالقسط، قوامين لله

ورد في سورة النساء (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ)[١] بينما في سورة المائدة (كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)[٢]، لماذا؟ يمكن معرفة ذلك بإذن الله تعالى بقراءة ما سبقها من الآيات.

أولاً: أما آية النساء «فإن الآيات المتصلة بها مبنية على الأمر بالعدل والقسط، قال تعالى (مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ)[٣] وقال تعالى (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ)[٤]، ثم قال سبحانه (وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ) وتوالت الآي بعد على هذا المعنى فقدم قوله (بِالْقِسْطِ) ليناسب ما ذكر»[٥].

وكذا قال سبحانه قبلها (وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ)[٦] فالسياق وارد في القسط والعدل، ثم قال بعدها «كالنتيجة لما مضى من الأمر بالقسط... على وجه أكده وحث عليه»[٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ) فناسب تقديم القسط «لأن العدل والحق مقدمان على الحقوق الشخصية وحقوق القرابة وغيرها، وكانت محاباة الأقربين معهودة في الجاهلية، لأن أمرهم قائم بالعصبية، فالواحد منهم كان ينصر قومه وأهل

١- النساء (١٣٥).
٢- المائدة (٨).
٣- النساء (١٢٣).
٤- النساء (١٢٧).
٥- ملاك التأويل (١ / ٢٢١).
٦- النساء (١٢٩).
٧- نظم الدرر (٢ / ٣٣٣).

عصبيته لأنه يعتز بهم ، كما يظلم النساء واليتامى لضعفهن »[١] . فهي «متصلة بما قبلها من الآيات القريبة خاصة بما فيه من الأمر العام بالقسط في اليتامى والنساء»[٢] .

ثانياً: بينما سورة المائدة سورة العهود والمواثيق. لذا في بداية السورة ذكر تعظيم شعائر الله تعالى (لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ)[٣] ، وفي ذكر المحرمات من الأطعمة قال سبحانه (وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)[٤] فقدم اسم الله تعالى ولم يقل (أهل به لغير الله) ثم ذكر بعدها (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ)[٥] وهكذا يقدم اسم الله في الآيات السابقة لها توثيقاً للعهد.

« فلما كان مبنى السورة على الوفاء بالعهد الوثيق، ويعظم العزم عليه بالتذكر بجلالة مُوثِّقه وعدم انتهاك حرمته، لأن المعاهد إنما يكون باسمه وحفظ حده ورسمه قدم قوله (اللَّهِ) »[٦] .

« فكونوا من أصحاب الهمم العالية وأهل الإتقان والإخلاص لله في أعمال الدنيا وأن تكون بنية صالحة»[٧] . لذا قال بعدها (كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ) فناسب تقديم اسم الله تعالى. إضافة إلى أن موضوع السورة الحفاظ على الميثاق الإلهي، فلا بد من تقديم اسم صاحب الميثاق ليكون أدعى للتعظيم والحفاظ عليه.

١- مختصر تفسير المنار (٢ / ١٩٨).
٢- المرجع السابق.
٣- المائدة (٢).
٤- المائدة (٣).
٥- المائدة (٧).
٦- نظم الدرر (٢ / ٤٠٧).
٧- مختصر تفسير المنار (٢ / ٢٩٢).

وكذا « ثبت قبلها الأمر بالطهارة ثم تذكيره سبحانه بتذكر نعمه والوقوف مع ما عهد به إلى عباده والأمر بتقواه فناسب قوله (كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ) »[1].

« فاختصت آية النساء بالقسط والشهادة لله وآية المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط لسر عجيب من أسرار القرآن »[2]، والله أعلم.

١- ملاك التأويل (١ / ٢٢١).
٢- بدائع التفسير (٢ / ٨٢).

د . أساور من فضة ، من ذهب

ورد في سورة الإنسان في حلية أهل الجنة (وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ)[١] بينما في سائر سور القرآن (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ)[٢] ، فهل من حكمة ؟

يحلى أهل الجنة بالذهب والفضة ، ولكن لما كان الذهب أنفس معادن الحلي وأغلاها ذكر في سائر الآيات المذكورة . ولكن في سورة الإنسان لما ذكر الله تعالى أن أهل الجنة يسقون من آنية من فضة (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا)[٣] ناسب بعدها ذكر الفضة لبيان كمال التناسق بين الحلي الملبوس في اليد مع الآنية التي تمسك باليد للشرب ، ففيها كمال الأناقة والذوق يتصورها الذهن وهو يقرأ الآيات .

زد على ذلك أن موضوع السورة هو الإخلاص لله تعالى ، فلما صفى القلب لله تعالى أصبح كالزجاجة لكنها من فضة (قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ) « فجمعت بين صفاء الزجاجة وشفيفها ، وبياض الفضة ولينها »[٤] . قال الحسن البصري « بياض الفضة في صفاء القوارير »[٥] . « وهذا من أعجب الأشياء أن تكون الفضة الكثيفة من صفاء جوهرها وطيب معدنها على صفاء القوارير »[٦] . فالمؤمن « من زجاج في شفوفه ، ومن فضة في جوهره »[٧] ، ظاهره يصدق باطنه ، وباطنه يصدق ظاهره كالزجاج

١ - الإنسان (٢١) .
٢ - الكهف (٣١) ، الحج (٢٣) ، فاطر (٣٣) .
٣ - الإنسان (١٥-١٦) .
٤ - البيضاوي (٩ / ٣٥٧) .
٥ - رواه الطبري (٢٩ / ١٣٣) .
٦ - تفسير السعدي (١٢٥٧) .
٧ - المحرر الوجيز (١٩٣٠) .

(قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ) « يرى باطنها من ظاهرها »[١] ، « فيرى ما فيها من الشراب من خارجها »[٢] ، فناسب ذكر حلي الفضة. لذا ورد بعدها (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا)[٣] وصف بالطهارة للصفاء والزكاة، والله أعلم.

١- غرائب القرآن لنظام الدين النيسابوري (٢٩/ ١١٨).
٢- مدارك التنزيل لأبي البركات النسفي (٣ / ٦٢٩)، ونحوه للشوكاني في فتح القدير (٥ / ٣٥٠).
٣- الإنسان (٢١).



٨- علقها بما بعدها من الآيات

بقراءة الآيات التي تعقب الآيات المتشابهة تتضح بعض الحكم من اختلاف الألفاظ . من ذلك :

أ. وزينتها

ورد في سورة الشورى(فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ)[١] بينما في سورة القصص (وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ)[٢] فلماذا زيدت (وَزِينَتُهَا) في سورة القصص؟

أولاً : « سورة القصص تضمنت ذكر قارون وما أوتيه من المال الذي هو زينة الحياة الدنيا . قال تعالى : (وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)[٣] ثم أخبر تعالى عن زهوه واختياله بماله وظنه استحقاقه إياه (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)[٤] . . . فقدم سبحانه قوله (وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا) للمعتبر من عباده المؤمنين وتنبيهاً للغافلين تمهيداً لما يأتي بعدها من الآيات في قصة قارون الذي غرته زينته . . . ولم يقع في آية الشورى ذكر (وَزِينَتُهَا) إذ لم يرد فيها ما ورد هنا مما يستدعي هذه المناسبة »[٥] .

١- الشورى (٣٦) .
٢- القصص (٦٠) .
٣- القصص (٧٦) .
٤- القصص (٧٩) .
٥- ملاك التأويل (٢ / ٥٧٩) .

ثانياً: موضوع سورة القصص أنه من علا وأفسد وظلم في الأرض متجبراً بملكه فالهلاك عاقبته كفرعون، وكذا من علا وأفسد في الأرض مغتراً بزينته والزينة الدنيوية فالهلاك عاقبته سواء كقارون. بينما حسن العاقبة لمن اتقى الله وتواضع في الأرض وأصلح (**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**)[١] فناسب ذكر الزينة في الآية المذكورة في سورة القصص، والله أعلم.

١ - القصص (٨٣).

ب. صلاتهم، صلواتهم يحافظون

قال الله تعالى في سورة المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1] ذكرت الصلاة مجموعة (صَلَوَاتِهِمْ) بينما في سورة المعارج: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[2] ذكرت الصلاة بصيغة المفرد (صَلَاتِهِمْ) فما الحكمة؟

أولاً: لا بد وأن نعرف أن المؤمنين درجتان، الأولى وهي الدرجة العليا وهي درجة السابقين المقربين عباد الله تعالى المحسنين. قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ⑩ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[3] وقال سبحانه: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[4]، لذا عندما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحسان قال ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[5]. فهي درجة المحسنين. لذا خاطبهم الله تعالى بقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ⑬⑬ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[6] وقال تعالى فيهم: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[7].

ثانياً: أما الدرجة الثانية فهي درجة الأبرار أصحاب اليمين المؤمنين، قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ㉗ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾[8]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[9] وهم دون الدرجة الأولى ﴿وَمِن

١- المؤمنون (٩).
٢- المعارج (٣٤).
٣- الواقعة (١٠).
٤- الإنسان (٦).
٥- رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨-٩).
٦- آل عمران (١٣٣-١٣٤).
٧- الرحمن (٤٦).
٨- الواقعة (٢٧-٢٨).
٩- الإنسان (٥).

دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)[١] .

ثالثاً: أما أصحاب الدرجة الثانية وهم الأبرار أصحاب اليمين فهم الذين يؤدون الواجبات ويجتنبون المحرمات وليس لهم تطلع إلى فعل المستحبات وترك المكروهات إلا لسد النقص. فهم يحافظون على صلاة الفريضة دون حرصٍ على النوافل ، ويحافظون على صوم رمضان دون حرصٍ على صيام النافلة ، والزكاة دون الصدقة المستحبة ، وحج الفرض دون حج النافلة وهكذا .

أما المحسنون السابقون فهم يحافظون على صلاة الفريضة وصلوات النوافل وصيام الفرض رمضان وصيام النافلة وحج الفرض وحج النافلة والعمرة والزكاة بالإضافة إلى الصدقة المستحبة وهكذا .

رابعاً: لما ذكر الله تعالى صنف الدرجة الثانية في سورة المعارج ذكر صفات الأبرار أهل اليمين المؤمنين ، فهم يؤدون الواجبات ويقتصرون على الفرائض ، فيحافظون على صنف واحد من الصلوات وهي صلاة الفريضة (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) « وَحَّد الصلاة إشارة إلى أنه يكفي في ذلك الفرائض »[٢] . «ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم »[٣] . فهي تنبئ عن « مراعاتهم لأوقاتها وقيامهم بحقوقها المفروضة قبلها ، والمفروضة عند افتتاحها ، والمفروضة عند جملة حدودها إلى حين اختتامها»[٤] . فخلاصته « أنهم الذين على مواقيت

١- الرحمن (٦٢) .
٢- نظم الدرر(٨ / ١٥٥) .
٣- الكشاف (٤ / ١٤٠) ، تفسير ابن كثير ، المعارج (٣٤) .
٤- درة التنزيل (٤٩٨) ، فتح الرحمن (٥٨١-٥٨٢) ، الروض الريان (٢ / ٥٢٢) .

صلاتهم التي فرضها الله عليهم وحدودها التي أوجبها عليهم يحافظون ولا يضيعون لها ميقاتاً ولا حداً »[١] . فبين الله تعالى جزاءهم أن لهم الجنة ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾[٢] .

خامساً: بينما في سورة المؤمنين ذكر الله تعالى الصنف الأول الدرجة الأولى من أهل الإيمان ، وهم السابقون المحسنون المقربون الذين يؤدون صلاة الفريضة الواجبة والسنن المؤكدة كالوتر وسنة الفجر ، والسنن الرواتب وهي السنن التابعة للفريضة أربع قبل الظهر وركعتان بعدها وركعتان بعد المغرب وركعتان بعد العشاء ، وكذا قيام الليل . فهي ليست نوعاً واحداً من الصلاة وإنما أنواع من الصلاة : الفريضة والمؤكدة والرواتب والمستحبات ، فقال تعالى فيهم : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ « فجمعت لتفيد المحافظة على أعدادها وهي الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنازة والاستسقاء والكسوف والخسوف وصلاة الضحى والتهجد . . . وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل»[٣] ، «فجمعت إشارة إلى أعدادها وأنواعها »[٤] ، « لا يتركون شيئاً من مفروضاتها ولا مسنوناتها ويجتهدون في كمالاتها »[٥] . « فهي لأهل الرسوخ في المحاسن »[٦] فكان جزاؤهم في الجنة أعلى من الأبرار « لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها»[٧] فقال ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٨]

١- تفسير ابن جرير (٢٩ / ٥٣) .
٢- المعارج (٣٥) .
٣- الكشاف (٣/ ٤٤) .
٤- نظم الدرر (٥ / ١٨٤ - ١٨٥) .
٥- نظم الدرر (٥ / ١٨٤) .
٦- نظم الدرر (٨/ ١٥٥) .
٧- السعدي (٧٤٦) .
٨- المؤمنون (١١-١٢) .

والفردوس أعلى الجنة . قال النبي ﷺ : « إذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة »[١]، « فلما ذكر مجموع هذه الأوصاف العظيمة فخم جزاءهم »[٢].

الخلاصة: أنه لما ذكر الله تعالى الثواب بالفردوس وصف أصحابها أنهم يحافظون على عدة أنواع من الصلوات (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ولما ذكر سبحانه الثواب بالجنة على العموم وصف أصحابها بأنهم يحافظون على صلاة الفريضة (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ)، والله أعلم .

١- رواه البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٢٣).
٢- نظم الدرر (٥/ ١٨٥).

جـ. وبالوالدين إحساناً، وحسناً

ورد في سورة الأحقاف (وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا)[١] وفي العنكبوت (وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا)[٢] بينما في آية لقمان (وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ)[٣] ليس فيها حسناً ولا إحساناً، هل من حكمة؟

أولاً: ينبغي أن نعرف الفرق بين إحساناً وحسناً. أما «حُسْنًا» فهي المعاملة الحسنة، وأما «إِحْسَانًا» فهي كمال الإحسان في المعاملة وهي أعلى المراتب في حسن التعامل من اللين واللطف وخفض الجناح للوالدين إذ الجنة تحت قدميهما.

ثانياً: يمكن معرفة الفرق بقراءة ما بعد اللفظ المذكور، ففي الآية الأولى في سورة الأحقاف وردت في الوالدين المؤمنين إذ « وردت فيمن أوصي بوالديه وهما مؤمنان لا يمنعانه عن الإيمان وهو من طاب نفساً وأصلاً »[٤] « فآمن هو وأبواه وسأل الله أن يصلح أولاده »[٥] (وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ⁽١٥⁾ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ)[٦] فالثواب له ولوالديه ولذريته، أما النعمة عليه وعلى والديه فهي

١- الأحقاف (١٥).
٢- العنكبوت (٨).
٣- لقمان (١٤).
٤- درة التنزيل (٣٥٠).
٥- درة التنزيل (٣٥٠)، ملاك التأويل (٢/ ٧٦٥).
٦- الأحقاف (١٥-١٦).

نعمة الإيمان والإسلام، لذا ذكر بعدها الابن الفاجر الذي كان والداه يدعوانه إلى الإيمان فيكفر (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ)[١].

ثالثاً: أما آية العنكبوت (وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا) فقد وردت في الوالدين الكافرين حيث حاولا مع ولدهما بطرق شتى الإشراك بالله تعالى ولكنه أصر على الإيمان فتركاه (وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي)[٢] أي لكي تشرك بي، فعليه أن يتعامل معهما معاملة حسنة (حُسْنًا) ولم يقل (إِحْسَانًا) لأن الإحسان في حق الوالدين المؤمنين والمعاملة الحسنة مع الوالدين الكافرين.

رابعاً: أما آية لقمان (وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ)[٣] ولم يقل حسناً ولا إحساناً لأنهما عذباه وآذياه وتعاليا عليه بالضرب والشتم والسجن والتعذيب على الشرك « ومنعاه عن الإيمان»[٤]. لذا قال سبحانه (وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي)[٥] فقال (عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي) أي جاهدا ابنهما مع تعالٍ عليه بالاعتداء فقال (عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي) فلا يجب عليه أن يتعامل معهما بالإحسان ولا حسناً ولكن المصاحبة بالمعروف، أي بما « يقتضيه العرف والشرع »[٦] في المعاملة في مثل هذه الظروف والأحوال فقال سبحانه (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا)[٧]. لذا قال بعض

١- الأحقاف (١٧).
٢- العنكبوت (٨).
٣- لقمان (١٤).
٤- درة التنزيل (٣٥٠)، ملاك التأويل (٢ / ٧٦٥).
٥- لقمان (١٥).
٦- غرائب القرآن لنظام الدين النيسابوري (٢١ / ٥٥).
٧- لقمان (١٥).

المفسرين أنها «وردت خاصة في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه»[1].

فالأحوال ثلاثة: إذا تعالى الوالدان عليه بالضرب والإيذاء والشتم ليكفر (جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ) فالذي يجب عليه المعاملة بالمعروف (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا)، أما إذا لم يتعاليا عليه بالإيذاء والشتم والضرب وإنما المحاولة بالطرق الأخرى لكي يشرك (جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي) فيتعامل معهما حسناً، أما إذا كانا مؤمنين فيتعامل معهما بالإحسان (إِحْسَانًا)، والله أعلم.

١- النكت والعيون للماوردي (٣/ ٢٨٠).

٩- معرفة الحوادث وأسباب النزول

إن معرفة الحادثة التي نزلت فيها الآية وكذا سبب نزولها من الأمور المطلوبة لفهم الآية الفهم الصحيح وتنزيل المعاني منازلها. وذلك يمنح المتدبر معنى لطيفاً يعز اقتباسه لو لم يسلك طريق الحادثة وسبب النزول. من ذلك:

أ. والضحى

في سورة الضحى قال الله تعالى(وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ)[١]. لماذا ابتدأت هذه السورة بـ(وَالضُّحَىٰ)؟ لم لم تبدأ بـ (والعصر) أو (والفجر)، (والظهر)، (والمغرب) ؟

أولاً: يمكن معرفة الحكمة بمعرفة سبب نزول السورة. إذ تأخر نزول الوحي على النبي ﷺ فاشتكى ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فقالت امرأة من الكفار : يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً. فأنزل الله تعالى (وَالضُّحَىٰ) السورة[٢].

ثانياً: الضحى هو الزمن الذي يبدأ بعد شروق الشمس واكتمالها إلى ما قبل انتصافها وسط السماء، « فهو في الأصل اسمٌ لوقت ارتفاع الشمس »[٣]. ففي فترة الضحى تستمر «الشمس في الارتفاع»[٤] والصعود وبسط شعاعها على الأرض «والنهار يقوى فيه »[٥]. « ويرتفع ارتفاعاً عالياً »[٦]. ولا يسمى الزمن ضحى إلا إذا

١- الضحى (٢-٣).
٢- رواه البخاري (٤٦٦٧)، ومسلم (١٧٩٧/ ١١٥).
٣- فتح القدير (٥/ ٤٥٧).
٤- تفسير البيضاوي (٩/ ٥١٠).
٥- تفسير البيضاوي (٩/ ٥١٠).
٦- الشهاب الخفاجي (٩/ ٥١٠).

كانت الشمس في ارتفاع وتألق في طريقها إلى وسط السماء.

ثالثاً: هذا مناسب لسبب نزول السورة، إذ ظن الكفار أن الإسلام في أفول وفي نهايته، فظنوا انقطاع الوحي وظنوا هجر الله تعالى لنبيه ﷺ. فبين الله تعالى « أنه لم يترك النبي ﷺ ولم تفارقه ألطافه وتكليمه »[(١)]. وأن محبة الله لك في ازدياد وارتفاع كحال ارتفاع الشمس «وذلك يدل على أنك تبلغ من الشرف ما لا يبلغه غيرك»[(٢)]، وأن الإسلام في انتشار واتساع وبسط شعاعه على الأرض كانتشار الشمس واتساعها وبسطها لشعاعها على الأرض.

« وقدم الضحى على الليل لما له من فضيلة النور »[(٣)]. « فهي لمسة من حنان، ونسمة من رحمة، وطائف من ود، ويدٌ حانية تمسح على الآلام والمواجع، وتنسم بالروح والرضى والأمل، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين... إنها تسرية وتسلية وترويح وتطمين. كلها أنسام من الرحمة وأنداء من الود، وألطاف من القربى، وهدهدة للروح المتعب، والخاطر المقلق والقلب الموجوع »[(٤)].

رابعاً: أما إرجاء نزول الوحي فترة ذلك لأن نزول الوحي كان شديداً على النبي ﷺ « كصلصلة الجرس وهو أشده عليه» قال تعالى عن القرآن (**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**)[(٥)] فمن أجل أن يحصل للنفس نوع من التخفيف والارتياح وزمن لتقبل وتحمل الوحي تأخر نزول الوحي. كحال الإنسان إذا كدّ وتعب في نهاره وضحاه

١- الشهاب الخفاجي (٩/ ٥١٠)، روح المعاني (٣٠/ ١٥٢).
٢- نظم الدرر (٨/ ٤٥٢).
٣- الجمل (٨/ ٣٤٤).
٤- في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٢٥).
٥- المزمل (٥).

فإنه يحتاج إلى الراحة والنوم في الليل ليستعد للعمل الجاد في الغد فقال سبحانه (وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ) « أي سكن أهله »[١]، « فالليل للراحة »[٢] ففي تأخر الوحي فائدة لك لترتاح وتلتقط أنفاسك كحال الليل إذا أقبل بعد عمل ثقيل جاد. «فالليل هو الليل إذا سجى، لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه، الليل الساجي الذي يرق ويسكن ويصفو، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف والتأمل الوديع »[٣].

خامساً: لو قال سبحانه (والظهر) لما ناسب المقام إذ الظهر تبدأ فيه الشمس بالانحدار والنزول عن القمة وبدء الأفول وهذا لا يناسب موضوع السورة، فمحبة الله تعالى لم تنقص ولن تأفل والإسلام لا يزال في علو وانتشار. وكذا (والعصر) هو استمرار في النزول نهاية اليوم، والمغرب أفول للشمس، وكذا لم يقل في المقدمة (والليل)، أما (الفجر) فلم تشرق الشمس بعد. فلا يناسب الأمر الذي من أجله نزلت السورة إلا زمن (الضُّحَىٰ)، والله أعلم.

١- تفسير البيضاوي (٩/ ٥١٠).
٢- غرائب القرآن للنيسابوري (٣٠/ ١٠٦).
٣- في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٢٦).

ب. أضعافاً مضاعفة

استوقفتني آية شعرت في الوهلة الأولى أنها لا تناسب الآيات التي قبلها وهي قول الله تعالى في سورة آل عمران (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً**)[١] وردت بعد أحداث غزوة أحد. فما المناسبة؟ يمكن التوصل إلى الحكمة والمناسبة بمعرفة الحدث الذي من أجله نزلت هذه الآية أو سبب النزول.

ففي غزوة أحد قتل من المسلمين سبعون، ومثَّل بهم الكفار، فقطعوهم أشلاء وبقروا بطونهم، وأكلت أكباد بعضهم كما حصل لحمزة رضي الله عنه. فقال بعض المسلمين لإن ظفرنا بالكفار لنمثلن بسبعين مقابل كل واحد منا. وروى الترمذي عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ومن المهاجرين ستة منهم حمزة رضي الله عنه فمثلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنُربِيَنَّ عليهم (من الربا: أي لنمثلن بأعداد مضاعفة منهم). فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالى (**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**)[٢][٣]. ففي هذه القصة «أمر يصلح أن يكون سبباً لنزول هذه الآية»[٤]. فوردت الآية (**لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً**) بعد أحد لبيان أنه لا يجوز الربا في المال فكيف بالأنفس؟ فكيف إذا كان أضعافاً مضاعفة «لنربين عليهم»؟ «لنمثلن بسبعين منهم»؟ فكانت مناسبة تماماً.

ومناسبة أخرى وهي أن «أعظم المقتضيات للخذلان تضييعهم للثغر الذي أمرهم

١- آل عمران (١٣٠).
٢- النحل (١٢٦).
٣- رواه الترمذي(٣١٢٩)، صححه ابن حبان (٤٨٧) والحاكم(٢/ ٣٥٩، ٤٤٦).
٤- نظم الدرر (٢ / ١٥٣).

النبي ﷺ بحفظه بسبب إقبالهم - قبل إتمام هزيمة العدو- على الغنائم للزيادة في الأعراض الدنيوية التي هي معنى الربا في اللغة إذ هو مطلق الزيادة»[١] ، ثم هذا قد «يجر إلى الربا المضاعف »[٢] .

وقيل مناسبة ثالثة أن الله سبحانه « خص الربا في هذه الآية لأنه الذي توعد الله عليه بالحرب منه لفاعله »[٣] كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)[٤] .

لذا يسهل معرفة هذه الدقائق بمعرفة سبب النزول أو الحوادث التي من أجلها نزلت الآية ، والله أعلم .

١- نظم الدرر (٢ / ١٥٢) .
٢- نظم الدرر (٢/ ١٥٣) .
٣- فتح القدير (١ / ٣٨١) .
٤- البقرة (٢٧٨-٢٧٩) .

جـ. عن مواضعه ، من بعد مواضعه

قال الله تعالى في الكثير من الآيات عن أهل الكتاب (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ)[١] في سورة النساء والمائدة. بينما وردت بلفظ (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ)[٢] مرة واحدة في سورة المائدة هكذا (مِنْ بَعْدِ) بينما الآيات الأخرى (عَن). ما الحكمة؟ لابد وأن نعرف أموراً:

أولاً: « تستعمل (عن) لما جاوز الشيء إلى غيره ملاصقاً زمنه لزمنه»[٣] أي للمجاوزة والابتعاد مباشرة، «فإذا قال أطعمه عن جوع ، وسقاه عن عطش يراد به لما عطش سقاه ولما جاع أطعمه»[٤]. ومن ذلك قولك (رغبت عنه) أي ابتعدت عنه مباشرة وقولهم (ذهبت عنه) أي تركته وابتعدت عنه. فاليهود كثيراً ما كانوا يحرفون كلام الله مباشرة وكذا أوامره بلا تأخر ولا انتظار (وَاسْمَعُوا)[٥] (قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)[٦]، (اعبدوا الله) فعبدوا العجل، (قُولُوا حِطَّةٌ)[٧] قالوا : حنطة، (ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا)[٨] فدخلوا يزحفون على أستاههم. فهذا من عهد موسى عليه السلام إلى ما بعده فنزلت (عَن مَّوَاضِعِهِ) في اليهود « الذين حرفوا ما أنزل الله من كلامه عما علموه تأويلاً له فيكون هذا تحريفاً من جهة التأويل، وحرفوا أيضاً من جهة التنزيل . . .

١- النساء (٤٦)، المائدة (١٣).
٢- المائدة (٤١).
٣- درة التنزيل (٩١-٩٢ - بتصرف).
٤- درة التنزيل (٩١-٩٢ - بتصرف).
٥- البقرة (٩٣).
٦- البقرة (٩٣).
٧- البقرة (٥٨).
٩- البقرة (٥٨).

فكانوا يعدلون بالكلم تأويله الذي له وتنزيله الذي جاء عليه إلى غيره مما هو باطل»[١].

فتضمنت الأولى (عَن) «إخبار الله سبحانه لنبيه ﷺ بمرتكب من تقدم من كفار بني إسرائيل حين أخذ عليهم الميثاق فنقضوا العهود وقتلوا الأنبياء وحرفوا كلام الله، فجعل قلوبهم قاسية ولعنهم على لسان داود عليه السلام وعيسى بن مريم عليه السلام فهذا كله تعريف بمرتكب سلف المعاصرين لرسول الله ﷺ وإخبار بحالهم من تحريفهم وتبديلهم»[٢]. وهناك بعض الأحكام لم يحرفوها مباشرة.

ثانياً: معنى (مِنْ بَعْدِ) أي بعد فترة من نزول الأحكام الإلهية، ثم يأتي ما يؤكدها ويبين ما هو الموضع الصحيح للحكم، فيحرفونها بعد تأكيدها (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) «حيث أبطلوا العمل بكلام ثابت في التوراة إذ ألغوا حكم الرجم الثابت فيها دون تعويضه بغيره من الكلام . . . لأن لفظ (بَعْدِ) يقتضي أن مواضع الكلم مستقرة وأنه أبطل العمل بها مع بقائها قائمة في كتاب التوراة»[٣]. وحدث هذا لليهود حيث أوجب الله عليهم رجم الزاني والزانية فطبقوا هذا الحكم فترة من الزمن، ثم رأوا الأشراف يقعون فيه فغيروه بأن جعلوا العقوبة تسويد وجه الزاني والزانية بالفحم ثم الطواف بهم أمام الناس.

فلما أتى النبي ﷺ أكد العقوبة بالرجم للزاني والزانية المحصنين، فلما سألهم النبي ﷺ عن أحكامهم حرفوا كلام الله تعالى وقالوا: بل في كتاب الله تعالى تحميم

١- درة التنزيل (٩١-٩٢ - بتصرف).
٢- ملاك التأويل (١ / ٢٤٢ - ٢٤٤).
٣- الطاهر عاشور (٦ / ٢٠٠).

الوجه فقط فبدلوا حكم الله تعالى، إذ روى ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون. فقال عبدالله بن سلام: كذبتم! إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك! فرفعها فإذا آية الرجم. فأمر بهما النبي ﷺ فرجما[١]. فحرفوا الحكم بعد فترة من تطبيقه إلى زمن النبي ﷺ فأكد الله تعالى حكم الرجم في كتابه ولكنهم أصروا على تحريفه فقال: (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) من بعد أن عرفت مواضعه، والله أعلم.

فتبين أن « (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) تكون لما تأخر زمانه عن زمانه بأزمنة كثيرة . . . فوردت في قوم من اليهود. . . في قصة زان محصن . . . وكانوا حرفوا حكم الله تعالى الذي في التوراة من بعد أن عمل به في مواضعه ولم يحرفوه ساعة نزوله ووجوب العمل به »[٢].

فوردت (مِنْ بَعْدِ) « لتعريف النبي ﷺ بأحوال معاصريه منهم فقد حرفوا»[٣] من الأحكام « ما استقر عليه سلفهم »[٤] «فقد حرف هؤلاء بعد الاعتراض والثبوت زائداً إلى ما ارتكبه سلفهم . . . فالبعدية لمن بعد»[٥]. «فوردت الآية الأولى (عَن) في أوائل اليهود بينما الثانية (مِنْ بَعْدِ) فيمن كانوا في زمن النبي ﷺ أي حرفوها بعد أن وضعها الله مواضعها وعرفوها وعملوا بها زماناً»[٦].

١- رواه البخاري (٣٦٣٥).
٢- درة التنزيل (٩١ - ٩٢)، تفسير ابن جرير (٦ / ١٥٣).
٣- ملاك التأويل (١ / ٢٤٢ - ٢٤٤).
٤- المرجع السابق.
٥- المرجع السابق.
٦- تفسير ابن جرير (٦ / ١٥٣)، فتح الرحمن (١٣٣).

د. صغيرة ولا كبيرة

قال الله تعالى عن الصحابة الذين خرجوا مع النبي ﷺ وجاهدوا (**وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ**)[١] . ما الحكمة من تقديم النفقة الصغيرة على الكبيرة؟ إذ من المعلوم أن النفقة الصغيرة إذا اكتسبت وأثيب العبد عليها فإنه سيثاب على الكبيرة من باب أولى ، فلم أخر ذكر الكبيرة؟ ولماذا لم يتقدم ذكرها على الصغيرة؟

يمكن معرفة ذلك بمعرفة سبب النزول . إذ روى البخاري عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة (أي للتصدق لغزوة تبوك) كنا نحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا : مرائي . وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا . فنزلت الآية (**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ**)[٢][٣] .

« فلما كان القليل قد يحتقر ابتدأ به ترغيباً في قوله (**نَفَقَةً صَغِيرَةً**) »[٤] ذلك تقديراً لفقراء الصحابة الذين لا يجدون إلا نفقة صغيرة فينفقونها في سبيل الله فاستهزأ بهم المنافقون لذا « فيها إشارة إلى آية اللمز للمطوعين في الصدقات »[٥] . فقدم الله تعالى ذكر الصغيرة رداً على المنافقين ، وبيان عظم قدرها عند الله تعالى ، ولئلا يظن أصحاب الصدقات الصغيرة أنهم في المؤخرة .

١- التوبة (١٢١) .
٢- التوبة (٧٩) .
٣- البخاري (١٤١٥) .
٤- نظم الدرر (٣/ ٤٠١-٤٠٢) .
٥- النظم (٣/ ٤٠١-٤٠٢) .

وكذا لبيان أن ما أنفقه المسلم مما يملك له أجر النفقة الكبيرة «سبق درهم مائة ألف درهم»، بل قد تفوق النفقة الكبيرة إما لأن النفقة الصغيرة خرجت من فقير لا يملك غيرها بينما الكبيرة خرجت من غني يملك أضعافها وقد قال ﷺ « سبق درهم مائة ألف درهم، رجل له درهمان أخذ أحدهما فتصدق به، ورجل له مال كثير فأخذ من عُرضه مائة ألف فتصدق به »[1] . وإما باختلاف الموضع الذي بذلت فيه النفقة «فالنفقة الصغيرة في بعض المواضع كالنفقة الكبيرة في غيره »[2] .

ولئلا يظن أهل الصدقات الكبيرة أن الله تعالى قد صد عنهم وأعرض عن ذكرهم، لذا ذكرهم. « فالمقصود التعميم لا خصوص المذكور إذ المعنى : لا ينقصون شيئاً ما»[3] . إذ « ربما تعنت متعنت فجعل ذكرها قيداً قال (وَلا كَبِيرَةً) إعلاماً بأنه متعد به لئلا يترك »[4] ، والله أعلم.

١- رواه أحمد (٢/٣٥٨) والنسائي(٢٣١٨-٢٣١٩) وصححه ابن خزيمة (٢٤٤٤) وابن حبان (٣٣٤٧) والحاكم(١/ ٤١٤) وحسنه الألباني.

٢- مختصر تفسير المنار (٣/ ٣٦٤).

٣- الشهاب الخفاجي (٤/ ٦٥٩).

٤- النظم (٣/ ٤٠١-٤٠٢).

هـ. أن أراد أن يبطش

ما الحكمة من قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام (فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا)[1]؟ إذ ممكن أن يقال (فلما أراد أن يبطش) بحذف (أن) الأولى .

يمكن الإجابة عن ذلك بمعرفة تفصيل الحادثة التي حدثت لموسى عليه السلام مع الإسرائيلي المتشاجر . ذلك أن موسى عليه السلام بالأمس رأى هذا الإسرائيلي يتشاجر مع قبطي أو فرعوني أي من طبقة ملوك مصر وبنو إسرائيل مستضعفون مستخدمون لديهم ، فتبادر إلى ذهن موسى عليه السلام أن الإسرائيلي مظلوم ، وأن المعتدي هو الفرعوني كما هو معروف عادة ، فنصره موسى عليه السلام وضرب الفرعوني الذي سقط صريعاً ، ولم يقصد موسى عليه السلام قتله فقال : (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ)[2] .

فوصل الخبر إلي الفراعنة ، ولم يعلموا من قتله . فأصبح موسى عليه السلام في المدينة خائفاً يترقب ، كثير الالتفات برقبته يتوقع المكروه ، فإذا الإسرائيلي الذي طلب نصرته بالأمس يستصرخه مرة أخرى ويستنجده على فرعوني آخر حصلت بينهما مشاجرة فقال موسى عليه السلام للإسرائيلي (إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ) ظاهر الغواية كثير الشر ، وهذا بين واضح .

فتردد موسى عليه السلام في نصرة الإسرائيلي إذ ربما يكون هو الظالم وربما يكون مظلوماً ،

١- القصص (١٩) .
٢- القصص (١٥-١٧) .

ولكن بعد هذا التردد توصل إلى غلبة الظن أن الإسرائيلي مظلوم، إذ يبعد أن يعتدي من هو من طبقة الخدم على من هو من طبقة الملوك (الفرعوني) ولقرائن أخرى بدت له أن الفرعوني هو المعتدي فذهب موسى عليه السلام لنجدة الإسرائيلي.

فمنذ بداية الاستغاثة إلى إرادة موسى عليه السلام البطش بالفرعوني الثاني حصل نوع من التردد لنصرة الإسرائيلي في فترة من الوقت، فهذا الفاصل من الوقت تم التعبير عنه بفاصل من الأحرف (أَنْ). ويظهر ذلك جلياً في قراءة السكت على الساكن ما قبل الهمز (**فَلَمَّا /أَنْ/ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا**).

قال ابن الأثير : « جرت بيني وبين رجل من النحويين مفاوضة في قول الله تعالى عن موسى عليه السلام بعد قتله للفرعوني (**فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ**)[1].

فقال : إنَّ (أَنْ) الأولى زائدة في قوله تعالى (**فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ**) ولو حذفت فقيل (فلما أراد أن يبطش) لكان المعنى سواء، وقد اتفق النحاة على أن (أَنْ) الواردة بعد (لمّا) وقبل الفعل زائدة. فقلت له : النحاة لا فتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة، ولا عندهم معرفة بأسرارهما من حيث أنهم نحاة، ولا شك أنهم وجدوا (أَنْ) ترد بعد (لمّا) وقبل الفعل في القرآن الكريم وفي كلام فصحاء العرب فظنوا أن المعنى بوجودها كالمعنى إذا سقطت ، فقالوا : هذه زائدة.

وليس الأمر كذلك ، بل إذا وردت (لمّا) وورد الفعل بعدها بإسقاط (أَنْ) دل ذلك

١- القصص (١٨-١٩).

على الفور ، وإذا لم تسقط لم يدلنا ذلك على أن الفعل كان على الفور، وإنما كان فيه تراخ وإبطاء، ففي الآية دليل على أن موسى عليه السلام لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته إلى قتل الأول ، بل كان عنده إبطاء في بسط يده إليه ، فعبر القرآن عن ذلك في قوله تعالى (فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ) .

الوجه الآخر : أن هذه اللفظة لو كانت زائده لكانت قدحاً في كلام الله تعالى، وذلك أنه يكون قد نطق بزيادة في كلامه لا حاجة إليها والمعنى يتم بدونها ، وحينئذ لا يكون كلامه معجزاً ، إذ من شرط الإعجاز عدم التطويل الذي لا حاجة إليه ، وإن التطويل عيب في الكلام ، فكيف يكون ما هو عيب في الكلام من باب الإعجاز؟ هذا محال»[١] ، والله أعلم.

١- المثل السائر (٢/ ١٥٢ - ١٥٣) .

و. فلما أن جاء البشير

قال الله تعالى في سورة يوسف لما أعطى إخوته القميص ليلقوه على وجه أبيه ليرتد بصيراً (فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا)[١] . لماذا زيد حرف (أَن) بين (لَمَّا) و (جَاءَ) ؟ فهلا قيل فيها (فلما جاء البشير) إذ لا يختل المعنى؟ يمكن معرفة ذلك بمعرفة تفاصيل القصة .

لقد فرق الأخوة بين يوسف عليه السلام وأبيه عليه السلام فترة من الزمن إلى أن قال لهم أبوهم بعدما فقد بن يامين (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)[٢] . فذهب قسم من الأخوة إلى مصر للبحث عن يوسف ومعرفة إمكانية استرجاع بن يامين، وبقي قسم آخر في الصحراء في البدو مع أبيهم يعقوب عليه السلام .

أما القسم الذي ذهب إلى مصر فدخلوا على عزيز مصر وقالوا له (يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ)[٣] وخرجت من مصر (قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)[٤] .

١- يوسف (٩٦) .
٢- يوسف (٨٧) .
٣- يوسف (٨٨-٩٤) .
٤- يوسف (٩٤-٩٥) .

فيعقوب عليه السلام شعر أن يوسف عليه السلام قريب منه ، لقد وجد رائحته ، فجاشت عاطفته ، وتحرك وجدانه تجاه يوسف ، وازداد شوقه للقائه فاستجعل لقاءه ، ولكن الوقت يمشي بطيئاً ، والدقائق تمر وكأنها ساعات ، والساعة تمر عليه وكأنها يوم كامل ، إلى أن جاءه البشير فألقى القميص على وجه يعقوب عليه السلام فارتد بصيراً ، فكأنه استبطأه ، وكأن وقتاً طويلاً مر عليه منذ أن وجد رائحته إلى أن جاءه البشير ، هذا فاصل من الوقت تم توضيحه بفاصل من الأحرف (أن) (**فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً**) . « لأنه لما كان مجيء البشير إلى يعقوب عليه السلام بعد طول الحزن وتباعد المدة ناسب ذلك زيادة (أَن) لما في مقتضى وصفها من التراخي »[1] . ويتضح ذلك في قراءة السكت لحمزة (**فَلَمَّا /أَن جَاءَ الْبَشِيرُ**) وكذا في قراءة الوصل بغنة النون .

« فالمراد بها تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف عليه السلام وبين مجيئه لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام ، وأن ذلك كان منتظراً بقلق واضطراب ، تؤكدهما وتصف الطرب لمَقْدَمِه واستقراره غُنَّةُ هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي (أَن) في قوله (**أَن جَاءَ**) »[2] .

« فمن نظر في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته منذ ألقوه في الجب إلى أن جاء البشير إلى أبيه عليه السلام وجد أنه كان ثَمَّ إبطاء بعيد ، وقد اختلف المفسرون في تلك المدة ، ولو لم تكن ثَمَّ مدة بعيدة وأمد متطاول لما جيء بـ (أَن) بعد (لَمّا) وقبل الفعل ، بل كانت تكون الآية (فلما جاء البشير ألقاه على وجهه) . وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة لأنها ليست من شأنهم »[3] ، والله أعلم .

١- البرهان للزركشي (٤ / ٢٢٧) .
٢- إعجاز القرآن للرافعي (٢٦) .
٣-المثل السائر (٢ / ١٥٣) .

المراجع

١- ابن جرير : انظر جامع البيان .

٢- ابن حبان : انظر صحيح ابن حبان .

٣- ابن خزيمة : انظر صحيح ابن خزيمة .

٤- الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية : لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الصديق - الجبيل، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

٥- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل : لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٦- أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها من غرائب آي التنزيل : محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، المكتبة العصرية - بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

٧- أسس النقد الأدبي عند العرب : د. أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر .

٨- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ : د. محمد الأمين الخضري، مطبعة الحسين - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

٩- إعجاز القرآن والبلاغة القرآنية : مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان . الطبعة التاسعة . (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م) .

١٠- إعراب القرآن الكريم وبيانه : لمحي الدين الدرويش، اليمامة - دار ابن كثير، دمشق ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

١١- البحر المحيط : لأبي عبدالله محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي الغرناطي الشهير بأبي حيان . مكتبة ومطابع النصر الحديثة - الرياض .

١٢- بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية، جمعه يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .

١٣- بدائع الفوائد : لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي - بيروت.

١٤- البديع في ضوء أساليب القرآن : د. عبدالفتاح لاشين، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م.

١٥- البرهان في ترتيب سور القرآن : أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق محمد شعبان، المملكة الغربية - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٦- البرهان في توجيه متشابه القرآن : محمد بن حمزة بن نصر الكرماني ، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، توزيع دار الباز - مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٧- البرهان في علوم القرآن : بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الجيل - بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٨- البقاعي : انظر نظم الدرر.

١٩- البيان والتبيين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٣٢م. تحقيق حسن السندوبي.

٢٠- البيضاوي : انظر تفسير البيضاوي.

٢١- البيهقي : انظر السنن الكبرى.

٢٢- تاريخ العرب : د. فيليب حتي، وإدوارد، وجبرائيل جبور، دار غندور ، بيروت- لبنان ١٩٨٦م.

٢٣- التحرير والتنوير : لمحمد الطاهر بن عاشور. مكتبة ابن تيمية، الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٨٤م.

٢٤- الترمذي : انظر سنن الترمذي .

٢٥- تفسير ابن جرير : انظر جامع البيان .

٢٦- تفسير ابن عطية : انظر المحرر الوجيز .

٢٧- تفسير ابن كثير : انظر تفسير القرآن العظيم .

٢٩- تفسير الإيجي : انظر جامع البيان .

٣٠- تفسير البيضاوي : لأبي سعيد ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد ، دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

٣١- تفسير الجلالين : لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي وجلال الدين عبدالرحمن السيوطي ، مطبوع مع شرحه الفتوحات الإلهية ، دار الكتب .

٣٢- تفسير الجمل : انظر الفتوحات الإلهية .

٣٣- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل . علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الخازن ، المطبعة النبهانية - مصر ١٣٤٧هـ .

٣٤- تفسير الرازي : انظر التفسير الكبير .

٣٥- تفسير السعدي : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي ، جمعية إحياء التراث الإسلامي - الكويت ، الطبعة الخامسة ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

٣٦- تفسير الشعراوي : محمد متولي الشعراوي ، تخريج د . أحمد عمر هاشم ، أخبار اليوم - القاهرة ١٩٩١م .

٣٧- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان : لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق - مصر ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

٣٨- تفسير القرآن : لأبي المظفر السمعاني منصور بن محمد بن عبدالجبار التميمي

المروزي الشافعي السلفي. تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم عباس. دار الوطن- الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٣٩- تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء إسماعيل عماد الدين بن عمر بن كثير القرشي، الشعب - القاهرة.

٤٠- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين التميمي البكري الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

٤١- تفسير الماوردي: انظر النكت والعيون.

٤٢- تفسير المراغي: لأحمد بن مصطفى المراغي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٤٣- تفسير المنار: انظر مختصر المنار.

٤٤- جامع البيان في تفسير القرآن: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

٤٥- جامع البيان في تفسير القرآن: معين الدين محمد بن عبدالرحمن الحسيني الإيجي الشافعي. شركة غراس - الكويت، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

٤٦- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. عالم الكتب- الرياض. الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

٤٧- الجلالين: انظر تفسير الجلالين.

٤٨- الجمل: انظر الفتوحات الإلهية.

٤٩- حاشية الشهاب، المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي: للقاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي. دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٥٠- خصائص التركيب: د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة - القاهرة، الطبعة الثالثة.
٥١- دراز : انظر النبأ العظيم.
٥٢- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز: لأبي عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بالخطيب الإسكافي، دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.
٥٣- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون. أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي. دار القلم- دمشق. الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٥٤- الدر المنثور في التفسير بالمأثور: لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار المعرفة - بيروت.
٥٥- الراغب: انظر المفردات.
٥٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي. دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية.
٥٧- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م.
٥٨- الروض الريان في أسئلة القرآن: شرف الدين الحسين بن سليمان الريان. مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٥٩- سلسة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: لمحمد ناصر الدين الألباني، الدار السلفية- الكويت. الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٦٠- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

٦١- سنن البيهقي : انظر السنن الكبرى.

٦٢- سنن الترمذي : ويسمى بالجامع الصحيح، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، المكتبة الإسلامية - تحقيق أحمد محمد شاكر.

٦٣- السنن الكبرى : لأبي بكر بن سعد بن الحسين بن علي البيهقي. دار الفكر.

٦٤- السنن الكبرى : لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تخريج أبي أنس جاد الله بن حسن الخداش، مكتبة الرشد - الرياض، الدار العثمانية - عمّان، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٦٥- سوق عكاظ ومواسم الحج : عرفان محمد حَمُّور، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى ٢٠٠٠م

٦٦- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان : لمحمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البُستي السجستاني، بترتيب علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٦٧- صحيح ابن خزيمة : أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السّلمي النيسابوري، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت.

٦٨- صحيح البخاري : للإمام محمد بن إسماعيل البخاري- دار السلام . الرياض، الطبعة الثانية. ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٦٩- صحيح الجامع الصغير، لجلال الدين السيوطي بتحقيق محمد ناصر الدين الألباني. منشورات المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

٧٠- صحيح مسلم : لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار السلام - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٧١- الصناعتين : لأبي هلال العسكري، مطبعة محمد علي صبيح.

٧٢- الطبراني : انظر المعجم الكبير .

٧٣- غرائب القرآن : انظر تفسير غرائب القرآن .

٧٤- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن : لأبي يحيى زكريا الأنصاري، دار القرآن الكريم - بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٧٥- فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير : لمحمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة - بيروت .

٧٦- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية : سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

٧٧- الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم : د . محمد بن عبدالرحمن الشايع . مكتبة العبيكان- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .

٧٨- في ظلال القرآن : لسيد قطب، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الخامسة والعشرون، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

٧٩- القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي . دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م .

٨٠- القرطبي انظر الجامع لأحكام القرآن .

٨١- قول على قول : حسن سعيد الكَرمي . دار لبنان للطباعة والنشر - بيروت . الطبعة التاسعة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م .

٨٢- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار الباز - مكة المكرمة، دار المعرفة - بيروت .

٨٣- كشف المعاني في المتشابه والمثاني : لبدر الدين أبي عبدالله محمد بن إبراهيم ابن جماعة . دار الشريف - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ .

٨٤- لسان العرب المحيط : لمحمد بن مكرم بن علي الأنصاري الأفريقي جمال الدين أبو الفضل المعروف بابن منظور، دار لسان العرب - بيروت.

٨٥- المتشابه اللفظي في القرآن ومسالك توجيهه عند أبي جعفر بن الزبير الغرناطي، دراسة وتحقيق د. رشيد الحمداوي، مكتبة أولاد الشيخ للتراث - مصر.

٨٦- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد المعروف بابن الأثير الموصلي. المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٨٧- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، وابنه محمد. الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.

٨٨- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : لأبي محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٨٩- مختصر تفسير المنار : لمحمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٩٠- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

٩١- مدارك التنزيل : أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي (بولاق).

٩٢- مستدرك الحاكم : للإمام أبي عبدالله محمد عبدالله الحاكم، دار المعرفة - بيروت.

٩٣- مسند أحمد : للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، دار صادر - بيروت.

٩٤- معاني القرآن : أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء. عالم الكتب- بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٠م.

٩٥- المعجم الكبير : لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي السلفي، وزارة الأوقاف في الجمهورية العراقية، الطبعة الأولى.

٩٦- معجم متن اللغة : أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان ١٩٨٥م.

٩٧- المفردات في غريب القرآن : لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. دار المعرفة - بيروت.

٩٨- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل : لأحمد بن الزبير الغرناطي. دار النهضة العربية - بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٩٩- النبأ العظيم : د. محمد عبدالله دراز، دار القلم - الكويت، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

١٠٠- النسائي : انظر السنن الكبرى.

١٠١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق عبدالرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٠٢- النكت والعيون : لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٠٣- وضح البرهان في مشكلات القرآن. محمد بن أبي الحسن الغزنوي بيان الحق النيسابوري. تحقيق صفوان عدنان. دار القلم - دمشق، الديار الشامية - بيروت.


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com